قواعـد الدبلوماسية البيزنطية

الدكتور رأفت عبد الحميد محمد
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية آداب — جامعة عين شمس

أمام كل باحث فى التاريخ البيزنطى •• علامة استفهام كبيرة ، تقف بارزة بين التمرينات ••

علامة استفهام فرضتها أحداث التاريخ ••

فعلى امتـــداد ألف ومائة من الســـنين ، عاشـــت الامبراطورية البيزنطية ، وهى من هذه الناحية فقط ، وبغض النظر عن حضـــارتها الزاهرة ، التى هذبت بها أخلاق الشعوب القبلية النازحة الى منطقـــة البلقان ، وهدت بها خطى الحائرين عند الدانوب والبحر الأســـود ، الى الحد الذى يتنافس فيها المتنافسون الآن ، من الروس واليونان ، يدعى كل منهم أنه الوارث الشرعى لها ، الضمين الحقيقى على تراثها !! نقول •• انها من ناحية الامتداد الزمنى فقط ، عبر أحد عشر قرنا من الزمـــان ، ما بين الرابع الى الخـــامس عشر ، تبـــز كل لداتهـــا من الامبراطوريات التى عرفها التاريخ عبر العصور •

الا أن هذه القرون الطويلة ، لم تكن نغما موسيقيا حالما ، عزفـــه البيزنطيون على قيثارة السلام ، ليقدموا للعالم فى زمانهم ومن بعد حضـــارة متيمزة ، بل كان عليهم — كما تقول المؤرخـــة ج• م• هسى J. M. Hussey فى كتـــابها « العـــالم البيـــزنطى »

أن يواجهوا فى صبيحة كل يوم بما يحتمه عليهم الموقع الجغرافى ، جيرانا تختلف طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم، عما كان عليه البيزنطيون •

كانت الحدود الطويلة للامبراطورية البيزنطية ، التى راحت تتآكل مع الزمن ، بفعل ما يقضمه منها أولئك الجيران ، تفرض عليها مجاورة شعوب لها جذوره الحضارية كالفرس ، أو حضارتها القائمة الراسخة كالمسلمين • وشعوب ضاربة فى التخلف كالقبائل الجرمانية العديدة ، والهون والأفار والصقالبة ، والبلغار والمجيار ، والغز والكومان والبشناق •

كان هناك طامحون •• طامعون فى الوصول الى مركز الثقل الحضارى آنذاك •• البحر المتوسط ، أولئك هم الفرس ، وآخرون يقاتلون ، فيقتتلون ويقتلون من أجل الاستقرار على الأرض الرومانية ، والتمتع بقطوف خيراتها الدانية •• وأولاءهم الجرمان •

جماعات تطمح الى القفز على القسطنطينية نفسها ، كالنورمان • وأخرى يأكل الحقد قلبها وتود اسقاط الامبراطورية كلها •• كاللاتين•• وقبائل انقلبت الى دول تدعى وراثة بيزنطة ، وبيزنطة بعد على قيد الحياة •• كالبلغار •• الذين قاد ملكهم سيمون Symeon جيشه فى أوليات القرن العاشر ضد القسطنطينية ، وادعى فى جرأة حمل اللقب الامبراطورى ،ولم يكن هدفه اقامة مملكة منافسة لبيزنطة ، أو بديلة عنها ، بل أن يرفع نفسه على عرش القسطنطينية امبراطورا رومانيا • بل والصرب ، الذين سمى ملكهم ستفن دوشان Stephen Dusan نفسه فى أربعينيات القرن الرابع عشر (١٣٤٥) « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا »!! بعد أن راودته الأحلام حول امكانية خلع الامبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس Ioamnes V Palaeologus وداعبته الآمال فى اعادة مجد روما القديم على يديه ، وكيف لا وهو يرى نفسه يسيطر

الى جوار المناطق التى كانت تحتلها القبائل الصربية أصلا ، على ألبانيا وابيروس وتساليا ومقدونيا ، بينما أمست بلغاريا تدور فى فلكه !

ومن قبل .. فى القرن الثانى عشر ، كاد فردريك بربروسا Frederick Barbarossa ملك ألمانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٥٢ — ١١٩٠) ، يعتبر نفسه خليفة قيصر وأوكتافيانوس أوغسطس وقسطنطين العظيم وجوستنيان ، رغم أصله الجرمانى ودولته القبلية ! ولذا نراه فى عام ١١٧٦ ينتهز فرصة الهزيمة التى لحقت بالامبراطر الرومانى فى القسطنطينية على يد سلطان قونية السلوجى ، عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى ، ليكتب بكل التشفى والاحتقار الى عاهل الرومان ذاك ، مانويل كومننوس Manuel Commenus (١١٤٣ — ١١٨٠) رسالة يجرده فيها من صفته الرومانية الشرعية ، ويصفه بأنه ملك اليونان Rex Grecorum وأنه هو ومملكته اليونانية Regnum Greciae جزء من امبراطوريته الرومانية !! أى امبراطورية فردريك بربروسا .

هكذا تبدو علامة الاستفهام كبيرة لأعين الدارسين للتاريخ البيزنطى ، اذا أضفنا الى ما سبق ، البابوية فى روما ، والتى ما فتئت تعمل للسيطرة على القسطنطينية ، كنيسة ودولة ، بحجة أنها بيعة مارقة وامبراطورية مهرطقة . كيف استطاعت الامبراطورية البيزنطية اذن أن تعمر كل هذه القرون ، وسط كل هذه الأخطار المحدقة ، التى تتهددها صبيحة كل يوم ؟!

ولا مندوحة عن القول ، ان الامبراطورية البيزنطية كانت تتمتع لفترات طويلة باستقرار سياسى بعيد عن التقلبات ، واستقرار اقتصادى بعيد عن الهزات ، وعملة ذهبية لها وضعها ومكانتها فى السوق التجارى العالمى ، وتحظى بجهاز ادارى كفؤ ، كان عونا كبيرا للسلطة الامبراطورية فى ادارة شئون الدولة ، فى ظل حكومة مركزية صارمة ، يجلس على

رأسها امبراطور ، يمثل فى الفكر السياسى الرومانى ، « نائب المسيح » Vicarious Christi علــى الأرض ، ويتبعه جيش كبــير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات • ورغم ما كان يعترى هــذا الجهاز من التعقيد ، الا أنه لم يفتقد المرونة • ولعل الكتاب الذى وضع فى منتصــف القرن العاشر الميلادى بقلم امبراطورى « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio دليل واضح على ما يمكن أن تحققه الادارة الناجحة من خدمات •

والى جانب هذا كله كانت الامبراطورية تنعم بتوافق يكاد يكون مستمرا بين السلطتين الزمنية والروحية ، بعد ن أمست الكنيسة فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومــة ، وغدا أسقفها موظفا كبــيرا لدى الامبراطور ، على عكس ما كان عليه الحال فى الغرب الأوروبى ، من الصراع السافر بين البابوية والامبراطورية ، حول السيادة العالمية ، والذى انتهى فى ستينيات القرن الثالث عشر ، بتوجيه الضربة القاضية للامبراطورية ، عندما سيق الملك الصبى كونرادينو Conradino آخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الحاكمة فى ألمانيا ، الى الاعدام فى نابولى ، بايعاز من البابوية[1] •

ولا يغيب عن الذهن فى اطار هذه العوامل الايجابية ، ما شهدته بيزنطة طوال عصرها من استتباب النظــام السياسى ، منذ رفع منه قسطنطين العظيم (٣٠٦ — ٣٣٧) القواعد فى القرن الرابع الميلادى ، بحيثلم تشهد ثورة حقيقة تستهدف قلب نظام الحكم ، وتغيير قاعدة النظام السياسى بشــكل جذرى ، الا مرة واحدة ، هى التى حدثت فى

---

(١) راجع فى ذلك بحثنا اعنون : « السمو البابوى بين النظــرية والتطبيق » ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٨٥ .

عام ٥٣٢ فى القسطنطينية [٢] ، وان كنا قد شهدنا حركات تمرد متعددة ، الا أنها كانت موجهة ضد شخص الجالس على العرش ، ولم تكن تستهدف العرش نفسه .

ولنضع الى جوار هذا كله .. القسطنطينية ، العاصمة الامبراطورية ، باحتلالها لذلك الموقع الاستراتيجى الممتاز ، حيث تطوقها المياه بأذرع ثلاثة البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبى ، فتوفر لها حماية طبيعية ، ضمنت لها وللامبراطورية الأمن العسكرى والبلغار والنورمان واللاتين ! لقد جاء زمان لم يبق فيه من بيزنطة الامبراطورية ، الا بيزنطة العاصمة ، كان هذا فى عام ٦٢٦ عندما حاصرها الآفار من الغرب ، وراح الفرس يشعلون نار ربهم على الشاطىء الأسيوى للبسفور قبالة القسطنطينية ، والجيوش البيزنطية تعمل فى الخارج تحت زعامة هرقل Heraclius (٦١٠ — ٦٤١) فى أرض فارس نفسها ، وأفلحت العاصمة فى الافلات من هذا الحصار ، بمناعة موقعها ، وقوة تحصيناتها ، ودبلوماسية ساستها .

اذن .. فالاستقرار السياسى فى الداخل والخارج ، والعمل الادارى الناجح ، والازدهار الاقتصادى ، وتأمين الطرق العالمية ، وضمان السيادة للعملة البيزنطية ، وتوجيه السياسة الاقتصادية فى السوق العالمى ، والتأييد المادى والمعنوى للجهود التى تبذلها الكنيسة الأرثوذكسية لنشر المسيحية بين شعوب البلقان الوثنية ، والتى تمهد تلقائيا لبسط النفوذ السياسى للامبراطورية على جيرانها ، كل هذا يحتاج

---

(٢) تعتبر هذه الثورة التى اندلعت ضد الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٢ من أخطر الثورات فى تاريخ بيزنطة ، اذ شارك فيها السناتو والحرس الامبراطورى وحزبا الزرق والخضر واصحاب الديانات المختلفة من الوثنين والمسيحيين على تعدد مذاهبهم وجموع الناس فى العاصمة ، وكادت أن تطيح فعلا بالنظام السياسى القائم . للمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة — راجع بحثنا .. « الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ » المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ — القاهرة ١٩٨٥ .

بلا ريب الى قوة عسـكرية رادعة قادرة على تحقيقه ، ودبلوماسية مـاهرة •

من هنـا كان طبيعيا أن يوجـه الأباطرة اهتمامهم الكامل الى الجيش ، ويعنون بتدريبه وتنظيماته وأسلحته ، وخططه العسكرية ، ولا غرابة اذن أن نجد جل أباطرة بيزنطة من العسكريين ، وأن معظمهم قادوا جيوشهم بأنفسهم • ووضع بعضهم رسائل تحتوى على دراسة قيمة عن الجيش فى زمانه ، مثل الامبراطور موريس Mauricius فى القرن السادس • وحتى هؤلاء المدنيين منهم ساهموا بفكرهم فى الاهتمام بالجيش البيزنطى ، فوضع ليو السادس Leo VI الحكيم فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، كتابه عن « التاكتيكات » العسكرية ، وخلف ابنه قسطنين السابع آخر عن « الثغور » •

لقد كان الجيش بحق — كما يقول المؤرخ البيزنطى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus هو مصدر القوة الحقيقة للامبراطورية ، بينما يعبر عالم الدراسـات البيزنطية ، نورمان بينز N. Baynes عن ذلك فى عبارة بليغة بقوله : « ليس تاريخ روما الا تاريخ الجيش الرومانى ، ولا يصدق اعتبار بيزنطة وريثة روما فى شىء ، بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية • لقد بنيت الامبراطورية وأمنت بفضل كتائبها » • وهذا ستفن رنسيمان Stephen Runciman يؤكد قائلا : « كان النظام الادارى بيزنطة مرتبطا ارتباطا وثيقا بقواتها العسكرية ، فالأعداء يحيطون بالامبراطورية من كل جانب •• ولم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير معرضة لخطر الغزو الأجنبى ، بل ان وجودها فى حد ذاته كان متوقفا على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب • وهـذا يتوقف على جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم ، وعلى سياسة دبلوماسية يقظة لا تهدأ لحظة عن العمل ••• لقد قضت الضرورة على

البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية ، وأن يولوا هذه الشئون العسكرية كل التفاهم وعملهم • وكان ذلك كله فى مصلحتهم » • ويضيف •• « لقد كانت بيزنطة طوال العصور الوسطى بلدا تدرس فيـــه أدوات القتـــال ووســـائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية كاملة ، وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار ، كما أن كثيرا من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشئون العسكرية ، ومنهم نستطيع أن نتعقب تطور تاريخ العسكرية البيزنطية » •

وقد يصبح الاعتماد على الجيش أمرا طبيعيا لبعض زمن ، وقد يطول ، لكن أن تظل الدولة فى حالة تعبئة عسكرية كاملة لزمن طويل ، خاصة اذا امتد هذا الزمن الى ألف ومائة من السنين ، فان هذا يعد ضربا من المستحيل ، وحرثا فى بحر ، لخزانة لابد أن تعلن افلاسها ، وروح معنوية لابد أن تنهار ، ومعين لابد أن ينضب من الموارد البشرية ، لقد ظل الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) خمسا وعشرين سنة متصـــلة يحارب فى الغرب الامبراطورى ، ومن أجل استرداد الولايات الرومانية الضائعة والواقعة فى قبضة الشعوب الجرمانية ، ويدفع خلالها جزية سنوية ضخمة لفارس ، فترك فى النهاية خزانة خاوية ، وولايات مقفرة خربة فى ايطاليا وأفريقيا ، وأخرى على شـــفا الثورة والضياع كمصر وســـوريا ، وجيشـــا ممزقا ، ورغم أن جوستنيان كان دبلوماسيا بارعا !! وهذا هو باسل الثانى Basilius II (٩٧٦ ـــ٥ ١٠٢) يشغل من القرن الحادى عشر سنواته الأولى حتى الثامنة عشرة ، فى حرب مع المملكة البلغارية ، ويذهب فى التـــاريخ بشهرة « سفارح البلغار » Bulgaroctonos حتى اذا قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنين ، هوت بيزنطة دفعة واحدة ، ولم تقم لها من بعد قائمة ، وان ظلت موجودة فى سجلات التاريخ حتى منتصف القـــرن الخامس عشر ، ولم تكن السنوات المائة (١٠٨١ — ١١٨٥) التى حكمها

آل كومننوس Comnenos الا بريقا •• ومض •• ومضى !!
وعندما أمست السيادة فى آسيا الصغرى Asia Minor للاتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر بعد ما تركت عام ١٠٧١ ، فقدت بيزنطة الى حد كبير معينها الرئيسى فى تجييش الجيوش، وراحت تولى وجهها شطر الغرب باحثة عن المرتزقة من الجنود •

فى مثل هذه الظروف •• وغيرها •• كان لابد لبيزنطة أن تستخدم سلاحا آخر الى جانب القوة العسكرية ، كان له مضاؤه وتأثيره البعيد ، أعنى الدبلوماسية • وقد برعت بيزنطة فى استخدام هذا السلاح خلال العصور الوسطى ، حتى أصبح علما عليها ، وغدت هى بحق أستاذا فى هذا الفن ، بعد أن وضعت له قواعده ومبادئه ، والتزم أباطرتها جميعا — مع المرونة المطلوبة — بهذه القواعد ، حتى أحلها قسطنطين السابع فى القرن العاشر مكانا مقدسا ، فوق منضدة مذبح أيا صوفيا Hagia Sophia وأوصى ابنه وهويعظه أن يدخل فى روع الشعوب التى يتعامل معها ، أن هذه القواعد قررتها العناية الالهية منذ عهد قسطنطين الأول فى القرن الرابع • وعلى هذا النحو ، كان طبيعيا أن يتحقق لبيزنطة بدبلوماسيتها ، الى جانب كل ما عرضنا له من عوامل القوة ، بقاؤها عبر هذه القرون الطويلة من الرابع الى الخامس عشر •

لقد كان ضروريا — على حد قول دفورنيك[٣] Ovornik — أن تعلم بيزنطة الكثير عن الشعوب المجاورة لها ، حتى يمكنها التعامل معها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، لذا كانت الدبلوماسية تعتبر الحماية الحقيقية ضد أية مفاجآت قد تحدث ، خاصة وأن القوة العسكرية للامبراطورية ، كانت تسير دائما ، منذ نهاية الربع الأول من القرن الحادى عشر نحو التدهور • ومما لا شك فيه أن التوافق بين العسكرية والدبلوماسية كان كفيلا بانقاذ الامبراطورية خلال أشد

---

(3) Ovornik, Origins of intelligence Services, pp. 165-166.

فتراتها تأزما ابان القرنين السادس والسابع ، على سبيل المثال • وساعد الأباطرة ليس فقط فى التغلب على كثير من الأزمات ، بل فى اعادة احياء مجد الامبراطورية خلال القرنين العاشر والحادى عشر •

لقد سارت الدبلوماسية البيزنطية جنبا الى جنب مع القوة العسكرية فى خطين متوازيين ، يعملان معا ، وقد يسبق أحدهما الآخر أحيانا ، لكنهما يمثلان جناحا السياسة البيزنطية الخارجية ، وكثيرا بل دائما ، ما عوضت الدبلوماسية النقص الذى كان يعتور القوة العسكرية فى معظم الأزمات ، ذلك أن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب أعدائها ، كما تقول المؤرخة « هسى »[٤] لم تكن تسمح لادارة الخارجية البيزنطية الا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة • ومن ثم كانت الدبلوماسية سلاح بيزنطة التقليدى المحبب اليها ، والذى أثبت فعاليته فى مناسبات عديدة • هى ان شئنا اذن بتعبير « أوبلنسكى »[٥] Obolensky واحدة من أشهر ما خلفته الامبراطورية البيزنطية من سمعة فى التاريخ الأوروبى » • ويضيف فى موضع آخر[٦] قائلا : « ليس هناك شك فى أن الدبلوماسية البيزنطية كانت بشكل عام ويقينى •• ناجحة • ولم لا •• وقد أنقذت الامبراطورية فى مواطن كثيرة من الغزو والدمار ، وجذبت جموعا من الوثنيين الى دائرة ضوء الحضارة اليونانية الرومانية ، وأضافت الى عالم المسيحية مساحات واسعة من الأراضى فى البلقان الى الشمال عند البحر الأسود • لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية عاملاً من أهم العوامل فى التاريخ الأوروبى ، يرى أثرة بصورة واضحة فى الميراث الثقافى ، فشعوب أوروبا الشرقية تلقت الكثير من مبادىء السياسة الخارجية على يد ساسة بيزنطة ، وتعلم حكام هذه المنطقة فى العصور الوسطى الشىء الكثير من

---

(٤) العالم البيزنطى ، تأليف ج.م. هسى ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٩

(5) C.M.H. IV, 1, p. 473.

(6) The prisciples and methids of Byzantine diplomacy, p. 61.

سادتهم ، بينما انتقلت بعض تقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، عن طريق البنادقة ، الى الغرب الأوروبى •

ومن الغريب •• أنه على الرغم من هذا الدور الحيوى الذى لعبته الدبلوماسية البيزنطية فى السياسة الامبراطورية ، الا أنها كما يقول مؤرخنا سالف الذكر أوبلنسكى ، ما زالت ميدانا بكرا فى حاجة الى كثير من الجهد والدراسة • والمحاولات التى جرت فى هذا السبيل رغم أهميتها ، قليلة ، نخص منها بالذكر ما جاء ضمن كتابات « شارل ديل » عن الامبراطور « جوستنيان » ، و« رنسيمان » عن (رومانوس لكابنوس) و(رامبوا) عن « قسطنطين السابع » ، و « جيناكوبلوس » عن (السياسة الغربية لميخائيل الثامن) • وما كتبه « أوبلنسكى » نفسه عن « الدبلوماسية البيزنطية » ، والذى قصر الحديث فيه عن السياسة البيزنطية تجاه الشعوب الواقعة على الحدود الشمالية للامبراطورية فى مناطق القوقاز وشبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ، خلال القرن العاشر الميلادى ، مع دراسة للخلفية التى ارتكزت عليها هذه الدبلوماسية(٧) •

وفى ضوء هذه النقطة الأخيرة ، فانه مما يثير الانتباه ، أن أحد أباطرة بيزنطة الأدباء فى عصرها الذهبى ، ابان القرن العاشر ، أعنى قسطنطين السابع •• الأرجوانى المولد Constantiuus VII Porphyrogenitus أى المولود فى الأرجوان ، قد ترك ضمن ما ترك من مؤلفات ، كتابه الذائع « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio وقد وضعه حوالى بين عامى ٩٤٨ — ٩٥٣ ، ووجهه الى ابنه الأمير الشاب رومانوس Romanus (الثانى فيما بعد) يهدف به الى تعليمه كيف يمكن أن يصبح حاكما أريبا ، وذلك بأن يضع بين يديه من خلال هذا الكتاب ، معرفة كاملة بالشعوب المجاورة للامبراطورية ،

(7) Id. ; Ibid. p. 46.

وكيفية التعامل معها ، « ... لأن المعرفة بهذه الشعوب ستكون دائما ذات فوائد عظيمة لك يا طفلى الحبيب ، وستنفك عندما تجد نفسك فى حاجة اليها ، فمن الصواب أن لا تكون جاهلا ، بل أن تكون لديك المعرفة الدائمة بالأجزاء التى تشرق عليها الشمس ، فكلها كانت فى وقت ما خاضعة للرومان »[8] .

ويمضى قسطنطين السابع قائلا : « ... أى بنى .. يجب أن تعلم الاختلافات القائمة بين كل شعب وآخر ، وكيف تعامل كلا منهم ، كيف تستميلهم وكيف تحاربهم ، انهم سوف يرتعدون أمامك لفرط حكمتك ، ويهربون كما يفرون خوف النار ! وسوف تطبق من الخوف شفاهم ، وتجرحهم كلماتك كالسهام فتؤدى بهم الى الموت »[9] .

كان قسطنطين السابع حريصا على أن ينقل الى ابنه خبرته السياسية التى كونها وهو بعد فى الظل قبل أن يغدو امبراطورا[10] ، فقد أريد له أن يظل قاصرا حتى الأربعين من عمره !! ولم تكن هذه السنوات الطوال التى قضاها تحت وصاية صهره القائد البحرى رومانوس لكابنوس Romanus Le Capenus لهوا وعبثا ، كما كان

(8) D.A.I. XLIII.

(9) Ibid. XLVII.

(١٠) أريد لقسطنطين السابع أن يظل طفلا قاصرا لفترة طويلة ، اذ وقع بعد وفاة أبيه ليو السادس تحت وصاية القائد البحر الشهير رومانوس لكابنوس ، الذى جعل من نفسه الامبراطور السيد وأنزل قسطنطين الامبراطور الشرعى الى مرتبة الامبراطور الشريك ، ووهو النظام الذى كان سائدا فى بيزنطة خلال فترات كثيرة ، خاصة زمن الأسرة المقدونية . بل انه رفع أبناءه أيضا الى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة ربع قرن (٩١٩ — ٩٤٤) وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات . وفى عام ٩٤٤ دبر أبناؤه مؤامرة ثم فياه القبض عليه ، فاستغل الامبراطور قسطنطين هذه الفرصة ، ولم يسمح لولدى رومانوس لكابنوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطة أبيهما ، وأيده فى ذلك أهالى القسطنطينية الذين كانوا يتعلقون به ، فأعدمها عام ٩٤٥ . وهكذا تولى زمام السلطة وهو فى سن الأربعين !!

يتوقع الوصى ويتمنى ، لكنها كانت فترة تأمل وصمت ودراســة ، شغل نفسه خلالها بالوقوف على تفصيلات كل صغيرة وكبيرة لكل ناحيــة من نواحى الادارة ، بصورة لا تعرف الملل ، وفى كل ما دق من أمور البلاط ، وبلغت سمعته مرتبة عالية فى المجال الخارجى فى ميدان الدبلوماسية ، وعلى الصعيد الداخلى فى النواحى الثقافية ، وأبدى اهتمــاما زائدا بالفن والأدب والتاريخ والآثار ، يصفه المؤرخ جنكنز Jenkins (١١) فى دراسة مقارنة ، بعبارات بليغة بقوله : « ورث عن أبيه حب العــلم والمعرفة ، فغدا بحق ابنا لوالده المثقف ليو السادس الحكيم ، ومثقفا من طراز فوطيوس(١٢) Bardas Photius أحب الكتب وهام بهــا وراح يجمعها من كل مكان من الامبراطورية وربما من خارجها • كان واحدا من البيزنطيين القلائل الذين أدركوا جيــدا أســلوب ومعنى النثــر الكلاســيكى • لقد كان على النقيض تمــاما من جــده باســل الأول Barilius I X الذى لم يكن يستطيع الكتابة على الاطلاق (كان مجرد سائس للخيول قبل أن يغدو امبراطورا) ، وأبيــه الذى كان يكتب بحذلقة ، وحفيده باسل الثانى الذى أوتى بسطة فى الجسم ، بينما لم ترق كتابته الى أبعد من مستوى صبى غر » •

واذا كانت منجزاته فى ميدان الثقافة تعد شيئا رائعا ، فان حمايته لمختلف الفنون تفوق الوصف ، واذا كان لابد من الحديث عن شىء ،

---

(11) D.A.I., general introduction by Jenkins, p. 7.

وراجع له أيضا Byzantium, the imperial centuries, p. 265

(١٢) يعتبر أعظ رجالات القرن التاسع فى بيزنطة والغرب الأوروبى علما ومعرفة ، وقد عمل أولا أستاذا بجامعة القسطنطينية ، واتخذ من بيته ناديا أدبيا وعلميا ، ودون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفت ، فترك بذلك مؤلفه الشهير الذى عرف بسم « المكتبة » Bibliotheca وقد أصبح بطريركا للقسطنطينية على عهد الامبراطور ميخائيل الثــالث العمورى (٨٤٢ — ٨٦٧) ، وحاز شرهة واسعة أيضا من موقعه هــذا بخلافه فى الرأى مع كنيسة روما حول الروح القدس فى الثالوث .

فليكن حول تشجيعه للتعليم والبحث • لقد كان متضلعا من الدراسات الكلاسيكية ، وتفهم ذكاؤه المفاهيم النظرية والتطبيقية للمعرفة ، المعرفة فى حد ذاتها ، والتى تعد ضرورة لمقدرة الرجل العملى للوصــول الى القرار الصــواب فى مختلف شــئون الحيــاة • وفى هذه الناحيــة والتى تتضمن بصورة رئيســية دراسة التاريخ ، نجد أن قســطنطين أعطاها اهتماما خاصا • فمن بين خريجى جامعة القسطنطينية ، التى كان هو المؤسس الثانى لها بعد القيصر برداس(١٣)
اختار موظفيه المدنيين ورجال الاكليروس • وقد أخضع ابنه رومانوس لمثل هذه الدراسة العملية • واذا كانت هذه المعرفة ضرورية للفــــرد العادى فى ممارسة حياته اليومية ومتطلباتها ، فهى بالأحرى أشـــد ضرورة لمن سيصبح حاكما • ولا شـــك دفعه وســـاعده على ذلك أن بيزنطة بلغت فى عهده أوج مجدها السياسى والعسكرى ، وقمة رقيها الثقافى ، وأروع آياتها الفنية(١٤) •

لا غرابة اذن أن يتمخض عن هذا كله انتاج فكرى ضخم ، ينم عن شخصية موسوعية متكاملة ، تمثلت فى كتابه الهام جدا « عن الثغور » De Thematibus ومؤلفــه الــراقى « عن المراســـــــم » De Cermoniis aulae Byzantinae الذى يعد وصفا دقيقا لمـــا كان عليه البلاط البيزنطى ، ويعتبر — كما يؤكد قسطنطين السابع نفسه فى مقدمته ، المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتناغم والانســـجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة ، يرفع من قدر العظمة الامبراطورية ، ويحدد أطر ومظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الامبراطورية البيزنطية ،

---

(١٣) هو خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره ، قام بدور بارز فى اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية ثانية ، بعد أن امتدت اليها يد الاهمال لفترة طويلة من الزمن بفعل الظروف العسكرية الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية •

(14) D.A.I., general introduction, by Jenkins, pp. 7-9.

ويقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين(١٥) • أما كتابه « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio فهو عمل رائع فى فن السياسة ، ومقال خطيرة فى أصول الدبلوماسية ، وتصور دقيق لوجهة نظر القسطنطينية تجاه العالم المحيط بها ، سماه صاحبه ببساطة « من قسطنطين الى ابنه رومانووس » وعرفه التاريخ باسم « عن الادارة الامبراطورية » ، ومن ثم فقد كان من وجهة نظر الامبراطور عملا بالغ السرية top Secret ، وليس مسموحا بتداوله خارج القصر ، بل كان غير مسموح الا لعدد محدود جدا من الدبلوماسيين بالاطلاع عليه(١٦) • ويمكن تقسيم هذا العمل الى أقسام أربعة ، أولها مفتاح للسياسة الخارجية البيزنطية ، خاصة فى المنطقة المضطربة عند الحدود الشمالية ، والثانى درس فى فن الدبلوماسية ، والثالث وهو أطولها ، مسح شامل لمعظم الشعوب التى تحيط بالامبراطورية ، بدءا بالعرب فى الجنوب الشرقى ومن يحيطون بحوض البحر المتوسط والبحر الأسود ، وانتهاء بالأرمن على الحدود الشرقية• والرابع ملخص عن التاريخ الداخلى السياسى والادارى على حدود الامبراطورية(١٧) •

والكتاب على هذا النحو يفصح عن الهدف الذى من أجله أقدم الامبراطور قسطنطين السابع على وضعه ، فهو يحاول أن يقدم لابنه خلاصة فكره وتجاربه وقراءاته فيما يتعلق بفن معاملة الشعوب ، التى كان على بيزنطة أن تحتك بها دائما ، راضية أم كارهة ، ونراه يلح بصورة واضحة على أن يعى ابنه رومانوس خبرة هذه السنوات ، فيقول: « ••• تفهم يابنى جيدا هذه الأمور ••• وكن حكيما ، فقد تتولى زمام الحكم يوما ما ، وسوف أراعى فيما أقدمه لك من موضوعات أن تكون

---

(16) Jlnkins, Byzantium, p. 260.

(17) D.A.I., general introduction, p. 10.

(١٥) هسى • العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، ص ٣١٢ ، ٣٧٥ •

مفيدة قدر الطاقة ، وما يخصك منها واضح وفيه الآن للجميع ، ومن خلاله تستطيع أن تدبر وتوجه شئون الحكم فى هذا العالم ، وسيكون حديثى ســهلا وبأسلوب مبسط ، ولا غرابة يابنى فى ذلك ، فلســت أديبا لأقدم لك حديثا رائعا من طراز العصر اليونانى ، بأسلوب ســام رفيع ، لكنه سيكون واضحا يصلح لكل حين • ومما أقدمه لك وأناقشه، سوف تتعلم الكثير من الأمور التى تنير لك الطريق • ان ما أقدمه — أى بنى — خلاصة خبرتى الطويلة ، يسهل عليك فهم الأمور وتدبر العواقب[١٨] •

ويجب أن لا ينصرف الذهن الى أن حديثنا الآن عما كتبه قسطنطين الســابع ، يعــنى أن الامبراطور قد ابتــدع أساليب جديــدة فى فن الدبلوماسية البيزنطية ، أو أضاف المزيد الى ما اتبعه الأباطرة الأسلاف، فقد كان العديد من أولئك الذين سبقوه ، وأولاء الذين من بعده أتوا ، أساتذة فى هذا الفن ، الى الحد الذى دفع مؤرخا مثل « أوبلنسكى » الى الحديث عن جوستنيان بقوله : « ان هذا الامبراطور هــو الذى أورث خلفاءه مفهوم الدبلوماسية باعتبارها علما معقدا وفنا رائعــا ، بحيث يصبح الضغط العسكرى والذكاء السياسى والمهارة الاقتصــادية والدعاية الدينية ، أسلحة قوية فى السياسة الدفاعية للامبراطورية[١٩]• كل ما نعنيه اذن ، أن قسطنطين استلهم أحداث التاريخ وتجــارب السابقين ، وسجل ذلك بنفسه فى قوله لابنه وهو يعظه : « يا بنى •• هذه هى الأحداث التى جرت فى أوقات مختلفــة بين الرومان والأمم الأخرى ، وهى وقائع تستحق التسجيل ، وعليك قراءتها والعلم بها ، حتى اذا تصادف ووقعت مثلها أحداث فى ظروف مشابهة ، تصــبح بمعرفتك السابقة قادرا على معالجتها »[٢٠] • ولا يعنى هذا أيضــا التقليل من قيمة الدور الذى بذله قسطنطين السابع فى رصد هــذه

---

(18) D.A.I. IV, p. 47.
(19) C.M.H. IV, p. 47.
(20) D.A.I. ,XLVI

القواعد وتصنيفها والتعامل معها بأسلوب فيه من الذكاء قدر ما به من الجدية ، فكفل لهذه القواعد البقاء ، وأحاطها بسياج من القداسة ، وان كان قد سجل خلاصة تجاربه الشخصية ابان فترة حكمه ، مع الشعوب النازلة فى المناطق الشمالية من الامبراطورية •

وكان طبيعيا اذن أن تحظى ادارة الخارجية البيزنطية برعاية تفوق بقية الادارات الأخرى فى الجاهز الحكومى ، فعلى ما يتوافر لديها من معلومات ، تتوقف سلامة الدولة وأمنها • وكانت المعلومات التى تنقلها السفارات والبعثات والتجار وغير ذلك من الوسائل الأخرى عن الشعوب المجاورة ، تصب كلها لدى جهة أنشئت لهذا الغرض عرفت باسم « ادارة شئون البرابرة » Scrinium barbarorum وربما يعود تاريخ انشائها الى القرن الخامس الميلادى ، وتركزت مهامها حول مراقبة الأجانب المقيمين فى العاصمة أو الوافدين اليها ، والاهتمام بالسفارات الخارجية القادمة الى القسطنطينية(٢١) • وقد ظل هذا الجهاز قائما حتى القرن الحادى عشر ، وان كانت سلطاته نفسها قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى ، فى أخريات سنى حكم الامبراطور ليو الثالث الايزورى (٧١٧ — ٧٤١) الى يد موظف عرف باسم Logothete راحت أهميته تزداد باطراد حتى أضحى منذ القرن التاسع أهم منصب وزارى فى الامبراطورية(٢٢) •

واطلاق هذا الاسم بالذات ، « ادارة شئون البرابرة » على جهاز له خطورته وأهميته فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الخارجية لبيزنطة مع الشعوب المجاورة ، أمر له دلالاته البعيدة ، فقد انطلقت الدبلوماسية البيزنطية من مبدأ أساسى قائم على ما استقر فى الفكر الرومانى ، ارثا عن اليونان ، أن ما عداهم من الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذهم

---

(21) Dvornik, op. cit., p. 174.

(22) Id.

السياسى وسلطانهم الحضارى ، وقبل هذا وبعده ، لسانهم ، محض « برابرة » Barbaroi يجب أن ينظر اليهم من عل • ولا يستثنى من هذه الشعوب الا الفرس والعرب فى بعض الأحيان ، فيحدثنا مؤرخ القرن الحادى عشر ميخائيل بسللوس ، والذى عمل وزيرا لخمسة من الأباطرة ، أن أحدهم وهو قسطنطين التاسع ، أمــره أن يكتب الى المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة ، رسالة تفيض بالمودة ، وتظهــر الخليفة المسلم فى صورة لا تقل عن الامبراطور البيزنطى مكانة بل لا مانع عنده من أن تعلوها حفاظا على مصــالح بيزنطة الســياسية والاقتصادية مع مصر ، ويعلق بسللوس على ذلك بقوله ، انه أبدى موافقته لعى ذلك أمام سيده ، فلما خلا الى نفسه ليكتب الرسالة ، حرص على أن يجعلها فى صورة غير التى أرادها الامبراطور ، لأن أحدا — فى اعتقاده — لا يمكن أن يطاول الرومان منزلة(٢٣) •

لقد قر فى ذهــن الرومان ، وبشىء من الاصرار ، أنهم الأمــة المتحضرة الوحيدة فى هذا العالم ، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون فى خدمة أهداف الامبراطورية ، خاضعين لسيادتها أو دائرين فى فلكها ، قانعين بسيادة ملك الملوك Basileus باعتبارهم أغصالا ورعــايا ، ذلك دورهم ، وتلك فى الوقت نفســه مهمة الدبلوماســية البيزنطية(٢٤) • ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسى الرومانى، الذى يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر ، التراث الرومانى بأحسن ما قدمهفى القانون والادارة ، والهللينية بأروع ما أبدعته فى اللغة والأدب والفلسفة ، والمسيحية بكل ما حملته من مبادىء • ومن ثم

---

(23) PSELL. Chron. VI 191.

وللمزيد من التفصيلات راجع للباحث : « مياخئيل بسللوس من خلال كتابه التاريخ الزمنى » Chronographia مجلة كلية الآداب — جامعة صنعاء ، العدد الثانى ١٩٧٩ ، ص ١٥١ — ٢٢٤ .

(24) Diehl, Byzantium, Greatnes and Decline, p. 54. XX

اعتقد البيزنطيون أن امبراطوريتهم فى جوهرها الحضارى تمثـــل « العالمية » Oikoumene يجلس على عرشـــها امبراطور يعـــد « السيد » الشرعى الوحيد والقانون الحى[٢٥] • هذا المعنى حرص على ابرازه مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias عندما يكتب قائلا : « ان سيادة الامبراطور تسع العالم كله »[٢٦] ويؤكده بعـــد قرون أربعة ، الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه « عن المراسم » عندما يقارن بين سلطان الامبراطور فى نسقه وانســـجامه ، وحركة العالم فى تناغمه على يد خالقه »[٢٧] •

بل ان قسطنطين السابع يدعم هذا المعنى ويزيده وضوحا وهو يخاطب ولده بقوله : « أى بُنى •• ضع نصب عينيك كلماتى واحفــظ جيدا ما آمرك به ، فتغدو فى الوقت المناسب قادرا على أن تســـتوحى من كنوز الأسلاف مدارج الحكمة ، ألا فلتعلم أن كل القبائل القاطنة فى الشمال قد طبعت على الشره للمال نفوسهم ، لا يقنعون أبدا ، تدور أعينهم وراء كل شىء نهما وطمعا ، يرفعون عقيرتهم بقول واحد •• هل من مزيد ؟ ! لا يؤدون عملا الا لقاء ما هو أكثر منه مالا وأشد نفعـــا • مثل هذه الأشياء التى يلحفون فى طلبها ، ويدعونها لأنفسهم فى قحة ، يجب أن يرد عليهم بقول معسول واعتذار مقبول)! »[٢٨] • ويستخدم قسطنطين السابع نعوتا قاسية فى وصفه لهذه القبائل بعد قليل ، حيث يصمها بـــ « المراوغة » و« والدناءة » •

وهذه النظرة التى راح قسطنطين السابع يلح عليها بصفة مستمرة فى كل صفحات كتابه » عن الادارة الامبراطورية » فى منتصف القرن

---

(25) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 52.

(26) Cited in, Ure, Justinian and his Age, p. 248.

(27) Cited in, Ure, Justinian an his Age, p. 248.

(27) Cited in, Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 53.

(28) D.A.I., XIII

العاشر ، والامبراطورية البيزنطية فى أوج مجدها ابان عصرها الذهبى زمن الأسرة المقدونية ، نسمع رنينها فى القرون الأولى ، ويتـــردد صداها فى القرون التالية والامبراطورية تعالج سكرات الموت البطىء ! نجدها واضحة فى رسالة قسطنطين الأول التى كتبها الى مجمع صور عام ٣٣٥[٢٩] ، ورسالة ابنه قسطنطيوس Constantius سنة ٣٥٦ الى السكندريين[٣٠] ، ورسالة جوليان Iulianus الى باسل أســقف قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى عام ٣٦٣[٣١] ، وجوســـتنيان Iustinianus فى العديد من تشريعاته[٣٢] • ولم يكن المؤرخون البيزنطيون أقل حرصا من أباطرتهم على ابراز هذا المفهوم الذى يعــد جوهر الفكر السياسى الرومانى ازاء هذه الشعوب ، ابتداء من يوساب Eusebius القيسارى فى القرن الرابع[٣٣] ، ومرورا بالقرن السادس عند بروكوبيوس Procopius [٣٤] وميخائيل بســللوس فى القرن الحادى عشر[٣٥] والأميرة أنا كومننا Anna Commena فى القرن الثانى عشر[٣٦] ونيقتاس الخونياتى Nicetas Chiniates فى القرن الثالث عشر[٣٧] • وغير هؤلاء وأولاء كثير •

ولا شك أن هذه النظرة قد شكلت بصورة أساسية طبيعة العلاقات بين الامبراطورية وجيرانها ، فالزوواج السياسى مثلا ، كان أحـــد

---

(29) SOCRAT. hstoria ecclesiastica, I, 34.

(30) ATHANAS. apologia ad Costantium, 30.

(31) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).

(32) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).

(33) EUSEB. Vita Constantini, IV, 56.

(34) PROCOP. de bello Persico 11, V. 29.

(35) PSELL. Chronographia, III, 9-10; IV 75, 90-91, 95, 153; VIII. 45, 63-67, 70.

(63) ANNA COMV. Alexiad, VIII. X.

(37) NICET. CHON. historia, pp. 757-763.

نقلا عن الدكتور اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٣٤٤

الدعامات الرئيسية للدبلوماسية البيزنطية ، رغم أنه استخدم فى نطاق ضيق تماما ، خاصة اذا كانت العروس بيزنطية • فقد جرى التقليد بمنع زواج أميرات البيت البيزنطى الجالس على العرش ، من أحد ملوك أو أمراء أو زعماء الدول والقبائل الأخرى ، حتى لا تختلط الدماء البيزنطية « النقية » بغيرها •• أقل منها نقاء ! وان كان مسموحا بزواج الأباطرة من أميرات أجنبيات ، سعيا لاكتساب ولاء هذه الشعوب ، أو تحريضها ضد عدو يتأبط شرا للامبراطورية •

وكان التوجيه الذى وجهه قسطنطين السابع لابنه فى هذا السبيل واضحا ، « ••• اذا أقدم أحد من هذه القبائل المراوغة الدنيئة القاطنة فى الشمال ، (ويحددها هو بالخزر والأتراك والروس والسكيزيين) ، على طلب عقد زواج مع امبراطور الرومان ، بغية التحالف ، فان هذا المطلب الرهيب الذى لا يليق ، عليك أن ترده قائلاً : « ان تبعة مثقلة ألقيت على كواهل الأباطرة ، وتمثلت فى وصية لا مجال للشك فى صحتها ، حفرت على المنضدة المقدسة للكنيسة الجامعة فى أيا صوفيا ، بحيث لا يمكن لأى امبراطور رومانى أن يربط نفسه برباط الزواج ، مع أمة تختلف طبائعها وتقاليدها عما جبل عليه الرومان ، خاصة مع أولئك الوثنيين الذين لم يتناولوا سر المعمودية ، ويستثنى من ذلك الفرنجة وحدهم[٣٨] • واذا كان لابد من الاجابة عن سؤال حول ••

---

(٣٨) كان الفرنجة هم الشعب الجرمانى الوحيد من بين الجرمان الآخرين ، الذى تحول منذ البداية الى المسيحية الكاثوليكية ، التى أقرها المجمع المنعقد فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وكان هذا التحول على عهد ملكهم « كلوفيس » Clovis فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بينما اعتنقت بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، المسيحية فى صورتها الآريوسية . وقد أدى اعتناق الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية الى آثار بعيدة المدى فى علاقات مملكتهم مع البابوية ، بلغت أوجها بتتويج ملكهم شارلمان امبراطورا بيد البابا فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ . للوقوف على تفصيلات الخلاف العقيدى بين الآريوسية والنيقية (الكاثوليكية) راجع : دكتور رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الخامس .

لمـــاذا هؤلاء بالذات ؟ •• فانه يمكن القول انه نتيجة لتلك الشـــهرة التقليدية التى حازتها تلك المنطقة ، والأصول النبيلة لهذه القبائل !! أما فيما عدا هؤلاء فانه ليس من سلطة أى امبراطور أن يقدم على مثل هذا ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، اذا يقع تحت طائلة الادانة باعتبـــاره أصبح غريبا عن جماعة المسيحيين ، وتحق عليه الأناثيما (اللعنـــة) ، حيث اعتدى على قوانين الأسلاف والشرائع الامبراطورية »[٣٩] •

واذا كان قسطنطين السابع قد استثنى الفرنجة من بين هـــذه الشعوب ، لمـــا يذكره من « أصولهم لنبيلة » ، والتى يخالف بها الحقيقة عمدا ، اذ هم قبيلة من بين القبائل الجرمانية العديدة ، التى التصقت بها صفة « البرابرة » التى خلعها عليهم جميعا الرومان • الا أن الشىء الذى لم يذكره قسطنطين السابع ، والذى يعد تبريرا حقيقيا لهـــذا الاستثناء ، هو أن ابنه رومانوس قد أقدم على الزواج فى عام ٩٤٤ من « برتا » Bertha ابنة « هيج » Hugh ملك ايطاليـــا (٩٢٦ — ٩٤٧)[٤٠] ، وبينما يخصص فصلا كاملا من كتابه[٤١] للعودة بنسب من أصـــهر اليه ، أعنى « هيـــج » الى الامبراطور شـــارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) نجده ينحى باللائمة على سلفه الامبراطور الايزورى ، الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنـــة خان الخزر ، رغم ما حققته الدبلوماسية البيزنطية من نجاح فى هـــذا السبيل ، اذ أدى هؤلاء الأصهار دورا كبيرا فى وقف تهديد المسلمين للحدود الشرقية للامبراطورية ، ليتفرغ الامبراطور لدرء الأخطار على الجبهة الشمالية • بل ان قسطنطين السابع لا يجد ما يحول بينه وبين خلع صفات وألقاب غير كريمة على ليو الثالث ، لما جلبه من » عـــار «

---

(39) D.A.I., XIII

(40) Jenkins, Commentary on D.A.I. vol. 2, p. 83.
راجع تفصيلات ظروف هذه الزيجة فى C.M.H. vol. IIT, p. 139.

(41) D.A.I., XXVI.

— حسب تعبيره — على نفسه والامبراطورية ، ويصــفه بأنه لم يكن مسيحيا قويما ، بل هرطوقا محطما للايقــونات[٤٢] ، ومن ثم لــقى الحرمان الكنسى وقيد بقيود اللعنة ، لأنه « كيف يليق بالمسيحيين أن يربطوا أنفسهم برباط الزوواج مع أولئك الوثنيات ، بينما الكنسة تحرم ذلك وتعتبره شيئا نكرا » • ويمضى قسطنطين فى تساؤله : « ••• بل كيف يمكن للاباطرة الرومان الأشهار وهم النبلاء الحكماء أن يقبلوا هذا الأمر ؟ ! »[٤٣] •

واضح تماما من عبارات الامبراطور المولود فى الأرجوان ، مدى تأصل الفكر الرومانى حول دونية هذه الشعوب المجاورة للامبراطورية، خاصة عند حدودها الشمالية ، وهى المنطقة التى أضــحت فى القرنين التاسع والعاشر ، تمثل مركز الأمن والتهديد لبيزنطة فى وقت واحد ، وتحظى بأهمية كبيرة لدى ادارة الخارجية البيزنطية • وكانت تمتد من

---

(٤٢) ذهب يو الثالث وابنه قسطنطين الخامس بشهرة واســعة فى التاريخ ، لتوليهما زعامة حركة تحطيم الأيقونات icons أو الصور المقدسة .. ووكانت هذه الصور التى تمثل العذراء والمسيح والقديسين والشهداء، قد لقيت رواجا فى دور العبادة المســيحية والأديرة والدور الخاصة ، حيث ازدانت تلك الأماكن ، لكن خطورتها عمثلت فى أنها أضحت محور اجلال الى حد التقديس عند جموع المســيحيين ، وقد عد ليو الثــالث ذلك ضربا من الوثنية الجديدة تشوب المسيحية ، فأصدر أوامره بتحطيم الأيقونات فى كل كنحاء الامبراطورية . وكان ابنه قسطنطين الخامس أعنف منه فى هــذا الاتجاه غ ولقى يلاهما العنت والمقاومة من جانب البــابوية فى روما ، التى كانت من أشد المتحمسين لتقديس الصور . واخذت هذه المشكلة أبعــادا سياسية واقتصادية ، ونتائج عسكرية وادارية وفنية ابان القرنين الثامن والتاسع . أنظر :

Hefele, history of the councils of the chourch, Vol. 5.

وأيضا

Percival, the Seven ecumenical councils (in Nicene and post Vicene Fathers, vol. XIV.

راجع كذلك ، دكتور أسد رستم : حدب فى الكنائس . بيروت ١٩٥٨

(43) D.A.I., XIII.

ســـــهول هنغاريا حتى بحر قزوين ، وتشـــمل جبال الكربات ومراعى الاستبس الروسية والأراضى الواطئة الى الشمال من القوقاز ، وتصل شمالا الى أنهار « الدنيستر » و « الدنيبر » و « الدون » ، وحتى منتصف الدانوب فى الغرب والفولجـــا الأدنى فى الشرق ، وتضم من بين ما تضم قبـــائل الآفار والصـــقالبة والبلغار والمجيـــار والروس والبشـــناق • ولا ريب أن هذه القبـــائل كانت ما تزال على وثنيتهـــا وبدايتها ، يباعد بينها وبين الامبراطورية البيزنطية ، الدين والحضارة ، وان أخذت تتحول تدريجيا على يد مبشرين بيزنطيين الى المســـيحية الأرثوذكسية ، ومن ثم كانت نغمة « الرومانية » أو « الدولة الوحيـــدة المتحضرة فى العالم » ، عالية تماما فى كتابات قســـطنطين السابع ، وهو يحدث عند هذه القبائل فى معرض الزواج السياسى ، « فلكل قوم — حسب تعبيره — عاداتهم وتقاليدهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، ونظامهم الخاص بهم ، وعليهم اتباع الأعراف السائدة بينهم واحترامها والحفاظ عليها ، فكما أن كـــل حيوان يحن الى فصيلته ، فـــان على كل أمة أن ترتبط عن طريق الزواج ، ليس من أولئك الذين يخالفونها الأصل واللسان ، بل مع من ينتمون اليها ويتحدثون لغتها ، حتى يسود الوئام والتفاهم بين من هم على شاكلة واحدة » (٤٤) •

وليس معنى هذا أن التقاليد البيزنطية كانت تحرم تحريما قاطعا مثل هذه الزيجات ، فقد كانت تسمح — فى اطار دبلوماســـية بارعة — بالزواج من أميرات بيزنطيـــات لا ينتسبن الى الأسرة الجالســـة على العرش ، كما حدث مثلاً من زواج أوتو الثانى Otto II ولى العهد الألمانى

---

(٤٤) .Id وللوقوف على خطورة الزواج من الأجانب كما تجســـده التقاليد البيزنطية ، راجع تلك القصة التى يرويها قســـطنطين السابع عن اهالى خرسون Cherson (حاليا سباستبول فى أقصى جنوب غرب شـــبه جزيرة القرم) وبسبور Bosporus (وهى حاليا كرش الواقعة على المضيق الذى يربط بحر آزوف بالبحر الأســـود) .. وذلك فى الفصل الثـــالث والخمسين من كتابه .D.A.I

والمرشح لاعتلاء عرش امبراطورية الرومان فى الغرب بعد أبيه ، من الأميرة البيزنطيـــة ثيوفانو Theophano فى ستينيات القرن العاشر ؛ وزواج الأميرة ماريا لكابنـــا Maria Lecapena حفيـــدة الامبراطور رومانوس الأول لكابنوس من بطرس Petrus ملك البلغار • رغم أن هذه الزيجة الأخيرة كانت أكثر نفعا للامبراطورية بصورة مباشرة ، بعد اشتداد حدة العداء بينها وبين المملكة االبلغارية على عهد ملكها سيمون، الا أن قسطنطين السابع أعلن امتعاضه وسخطه على هـــذا الزواج ، ووجدها فرصة سانحة للتشهير بصهره رومانوس ، الذى أبقى عليـــه — كما أسلفنا — قاصرا حتى الأربعين من عمره •

كتب قسطنطين مخاطبا ابنه •• « فان سألوك — يعنى القبـــائل النازلة فى الشمال — كيف سمح اذن الامبراطور رومانوس لنفســـه ، أن يرتبط بعلاقة زواج مع البلغار ، معطيا يد حفيدته الى بطرس ملك بلغـــاريا ؟ ! فيجب أن يكون دفاعك : « لقد كان رومانوس امبراطورا شريكا (٤٥) وشـــخصا جاهلا ، ولم يكن أبدا فى يوم ما من بين أولاء الذين ولدوا فى الأراجوان ، ولم يرب على التقاليد الرومانية منذ كان ،

---

(٤٥) لم يكن رومانوس لكابنوس ينتمى للأسرة الجالسة على العرش، وهى الأسرة المقدونية التى أسسها باسل الأول المقدونى عام ٨٦٧ . وقد توارث أبناء الأسرة الحكم على النحو التالى : باسل الاول ، ليو السادس وقسطنطين السابع ، رومانوس الثانى ، باسل الثانى ، قسطنطين الثامن، زور وثيودورا . وفى خلال سن القصـــور الذى عاشه كل من قســـطنطين السابع ورومانس الثانى وباسل الثانى ، قفز الى العرش كأباطرة شركاء أوصياء على الامبراطور الشرعى ، عدد من القادة العسكريين الذين ينتمون الى العائلات الأرستقراطية الزراعية والعسكرية فى الوقت نفسه ، خاصة فى منطقة آسيا الصغرى . وكان من بين هؤلاء القـــائد البحرى رومانوس لكابنوس ، ثم نقفور فوقاس Nicephorus Phocas ويوحنا تزيمسكس Ioannls Tzimisces وعرف هؤلاء بالأباطـــرة الشركاء ، وهو النظام الســـياسى الذى عرفته بيزنطة كما أســـلفنا . وقد تحقق لبيزنطة على يد هؤلاء الشركاء الكثير من الانتصارات العسكرية الحاسمة فى الخارج .

ولا ينحدر من أصول نبيلة ، ومن ثم فانه نتيجة هـذا كله كان فى كثير من تصرفاته يتسم بالحماقة والاستبداد • وفى هذا الأمر بصفة خاصة لم يبال بما تحرمه الكنيسة ، ولم يتبع أمر ووصية قسطنطين العظيم ، لكنه بما جبـل عليه من مزاج عنيف وطبع حاد ، وبعد عن الفضـائل ، ورفض لاتباع ما هو حق وصواب ، وعدم التزام بالتعاليم التى خلفها لنا الآباء ، تجاسر على أن يقدم على فعلته هذى ••• ومن ثم فان تلك التى أصـبحت زوجة (يعنى ماريا لكابنـا) لم تكن ابنة الحـاكم والامبراطور الشرعى ، بل ابنة من يأتى ترتيبه الثالث (يعنى طبعا بعد الامبراطور والامبراطور الشريك) ، وما زال فى مرتبـة أدنى ، ولم يشارك بعد فى السلطة ، ولم يمارس أى عمل من أعمال الحكم » (٤٦)• ثم يتحـدث قسطنطين بعد ذلك عما أصـاب الامبراطور رومانوس لكابنوس فى أخـريات أيامه من المصـائب ، حيث أمسى مكروها من السناتو والكنيسة ، وانتهى الأمر بمقتله » (٤٧) •

على أن دفاع قسطنطين على هذا النحو ، عن التقاليد الرومانية ، لا يخلو ، بل يمتلىء ، بالتحامل على رومانوس لكابنوس ، ذلك أن زواج ماريا لكابنا من بطرس البلغارى ، أنقذ السلام فى البلقان خمسـة وعشرين عاما ، وكان هـذا فى حد ذاته عملا سـياسيا بارعا ، بل ان قسطنطين نفسه لم يجد أمامه مفرا ، الا أن يلتمس العذر ، وان على استحياء ، لرومانوس فيما أقدم عليه ، لـما تم نتيجة هذه الزيجة من افتداء عدد من الأسرى ، بالاضافة الى أن البلغار كانوا قد تحولوا الى المسيحية • الا أنه يضع القاعدة الأساسية فى هذا الزواج السياسى باعتباره أحد عمد الدبلوماسية البيزنطية ، حين يؤكد بلا أى لبس أو غموض ، أنه حتى الاتفاق فى العقيدة « لا يبيح زواجهم من أية أميرة

---

(46) D.A.I., XIII.

(47) Id.

من الأسرة الحاكمة ، سواء كانت صـلة قرابتها من الدرجة الأولى ، أو حتى أبعد من ذلك ، ومهما أدى هذا الزواج من خدمات للحكومة !!(٤٨)، •• ومن الغريب أن يؤكد الامبراطور ذلك بالحـاح ، بينما يبارك زواج أخته « أنا » Anna من لويس الثـالث ملك ايطاليا ، وزواج ابنـه رومانوس من ابنة الملك هيج • ولا شك أن هذه الزيجات الثلاث ، رغم ما يقوله قسطنطين ، كانت عملا من أعمال الدبلوماسية البارعة والحتمية آنذاك (٤٩) •

ولن تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى يقوم حفيده الامبراطور باسل الثانى ، بنقض هذه القاعدة والخروج عليها ، عندما يتعرض فى سنة ٩٨٨ للفتنة الداخلية التى أشعلها ضده بارداس فوقاس Bardas Phocas فى الوقت الذى كان البلغـار يهددون حدود الامبراطورية ، والخليفة الفاطمى العزيز بالله يعد أسطوله لمهاجمة السواحل البيزنطية ، فلم يجـد باسل الثانى أمامه الا الاسـتعانة بالأمير الروسى فلاديمير Vladimir الذى سـير اليه قوة عسكرية قوامها سـتة آلاف جندى ، ساعدته فى الخروج من هذا المأزق ، وكان ذلك مقابل الزواج من الأميرة « أنا » Anna أخت الامبراطور • ورغم أن باسـل حاول أن ينكص على عقبيه ، التزاما بالتقليد البيزنطى ، بعد أن تم له القضاء على ثورة بارداس ، الا أن فلاديمير اضطره الى الوفاء بما عاهد عليـه الأمير • وتم تعميد هذا العاهل الروسى وزواجه من الأميرة البيزنطية •

وفى القرن الثانى عشر ، أصهر الامبراطور يوحنا كومننوس الى البيت المالك الهنغارى ، بينما كانت أزواج ابنه مانويل كلهن من الغرب ، وأولاهن « برتا » Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث الملك الألمانى • بل ان الامبراطور مانويل كومننوس هذا ، أقدم على وضـع خطة دبلوماسـية بارعة ، يسـتهدف بها ضم المجر الى

(48) Id.
(49) Jenkins, Byzantium, p. 262.

الامبراطورية ، وذلك بسعيه لزواج ابنته من الأمير « بيلا » Bela وريث العرش الهنغارى • ولم يحل دون اتمام هذه الزيجة ، الا مولد ابنه ألكسيوس (الثانى) •

ومن الملاحظ أن عدد الزيجات السياسية قد ارتفع فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى ، بين البيت الامبراطورى ، والعائلات الملكية الصقلبية أو الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى ، حيث كان التقليد البيزنطى مرعيا الى حد كبير من جانب الأباطرة • ويعود هذا بالطبع الى قدوم عدد من ملوك أوروبا وأمرائها الى الشرق مرورا بالقسطنطينية ، على رأس حملاتهم الصليبية ، وازدياد علاقتهم بالامبراطورية سلبا أو ايجابا ، فى الوقت الذى راحت فيه بيزنطية تحت الخطى نحو الانهيار ، ويزداد اعتمادها على الجند المرتزقة من الغرب الأوروبى خاصة الانجليز والاسكندنافيين بالاضافة الى الصقالبة ، ليشكل هؤلاء من بعد ، القوة الرئيسية للحرس الامبراطورى ، حتى عرفوا باسم « الورنك » Varangians وأطلق ذلك أيضا على الطريق الذى كانوا يسلكونه الى القسطنطينية ، فذاع باسم « طريق الورنك » Varangian route • وعلى ذلك نرى أنه على الرغم من أن المبادىء الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغيير •• الا أنها كانت غالبا ما تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، لتتمشى مع الظروف المتغيرة • وليس أدل على ذلك من أنه خلال القرن الرابع عشر• أقدم الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس Ioannes VI Cantacuzenus فى ظل الظروف السياسية المتدهورة فى الداخل، والصراع الدائر حول لعرش ، الى أن يعطى يد ابنته الى الأمير العثمانى المسلم أورخان Orchan ليحصل على عونه فى الحرب الأهلية الدائرة مع أسرة باليولوجوس Palaeologus

واذا كان الزواج السياسى بما أداه من خدمات للامبراطورية ، كدعامة من دعائم دبلوماسيتها ، يعطينا صورة جلية عن أطر الفكر

الرومانى الرومانى حيال هذه الشعوب ، فان جانبا آخر من جوانب الدبلوماسية يدعم هذا الاتجاه ، ذلك أن الوفود الرسمية التى كانت تقدم على العاصمة الامبراطورية ، يأخذ بألبابها ثراء المدينة وبهاؤها ، وما كانت عليه من الترف فى الدور والقصور والكنائس والأبنية العامة، اذا يعمد الوفد البيزنطى المرافق لهؤلاء القادمين ، الى المرور بهم عبر أجمل شورع المدينة ، فاذا ما زاغت منهم الأبصار ، وبلغ بهم العجب مبلغه عند نهاية التطواف ، وجدوا أنفسهم وقد تمت استضافتهم فى قصر فخيم من القصور الامبراطورية • وقبل أن يفقوا يخلع عليهم الامبراطور الخلع الثمينة والهدايا (٥٠) وهذا هو أجاثياس Agathias يصف لنا قسطنطينية جوستنيان فى القرن السادس الميلادى بقوله « انها كانت تزخر بالعديد من زعماء الشعوب المجاورة للامبراطورية ، تصحبهم نساؤهم وبنوهم وخاصتهم وخادموهم ، فتتمثل المدينة لأعين الرائين معرضا يضم أزياء الدنيا ، وألسنة الأمم جميعا !! يلقون الترحيب على أكمل وجه ، وهم يسيرون وسط العاصمة وقد امتطوا صهوات جيادهم ، يحف بهم الفرسان من حملة الأعلام ونافخى الأبواق فى منظر يأخذ بالألباب » (٥١) •

ولا شك أن هذه المظاهر البواقة ، كانت تترك بصماتها واضحة على هؤلاء الذين سرعان ما ينقلبون سفراء لبيزنطة لدى دولهم ، وليس أدل على ذلك مما تتناقله الروايات عن الأمير الروسى فلاديمير ، الذى قيل انه أرسل مبعوثيه الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والأرثوذكسية فى القسطنطينية ، والمسلمين ، واليهود الخزر ، للوقوف على أى العقائد ينتهجون !! فلما عادوا وراحوا يقدمون تقاريرهم ، قال الذين جاءوا الى القسطنطينية ، « قادنا اليونان (البيزنطيون) الى الدور يعبدون فيها الله ، فلم ندر أفى السماء كنا أم على الأرض ؟ ! فاذا

(50) D.A.I., LIII.

(51) AGATH. historia, 172.

كانت الأخيرة ، فليس هناك ماهو أفخم ولا أعظم من ذلك ، ونحن ازاءهم عاجزون عن الوصف .. كل ما يمكننا قوله أيهـا الملك .. ان الله يقيم وسط هؤلاء الناس (٥٢) ولا يقل ما جاء فى تقرير ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona الذى قدم مبعوثا من قبـل الملك اللومباردى برنجار سنة ٩٤٩ ، فى رحلته الأولى الى القسطنطينية ، شيئا عن تلك الأسطورة !

ويفيض الكتاب الذى وضعه قسطنطين السابع « عن المراسم » De Cermoniis والكثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » بالصور الحية التى تصف استقبال القسطنطينية للعديد من وفود الدول الأجنبية والشعوب المجاورة التى كانت ترد اليها (٥٣) ، ومنها ندرك أن مظاهر الترحيب والاحتفال كانت تزداد مع القادمين من مناطق جديدة ترغب ادارة الخارجية البيزنطية فى كسب ولائهم ، من ذلك مثلا ماحدث للأميرة الروسية أولجا Olga التى زارت القسـطنطينية عام ٩٥٧ ، مصطحبة معها حاشية ضخمة وقسيسها جريجورى الذى كان يعلمهـا المسيحية فى « كييف » Kiev ، فقد دعيت لتتخذ مجلسـها الى جوار الامبراطور ، وخلع عليها الكثير من الهدايا القيمة عنـد اجراء طقوس عمـادها .

ومن الجدير بالذكر أن تعليمات ادارة الخارجية البيزنطية ، كانت صريحة بضرورة عدم السمـاح لأى سفير من هؤلاء ، أو قادم رسمى بالتجول فى المدينة وحده دون حرس أو وفد مرافق ، أو الاطلاع على شىء مما ترغب الحكومة فى اخفائه عن الأعين . ومن ثم كان لابد أن يحف بهم الحرس منذ قدومهم وحتى ارتحالهم عن القسطنطينية (٥٤) ،

---

(52) Dvornik, op. cit., p. 176.

(53) De Cermoniis, I, 89-90; II, 15, Cited in Dvornik, op. cit., p. 175.

(54) Dvornik. Loc. cit.,

مع الحرص على أن يبـــدو ذلك فى ظاهره نوعا من التكريم ، وان كان فى جوهره نوعا من الرقابة الصارمة على تصرفات هؤلاء الســفراء ، يزيدها حدة ما كان يجرى من وضع عــدد من الخدم تحت تصرفهم ، تنحصر مهمتهم الرئيسية الخفية فى الحصول على أى نوع من المعلومات عن الوفد المرافق للسفير • وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ، ليو تبراند، سالف الذكـــر ، وذلك فى تقـــريره الذى كتبه عن زيارته الثـــانية للقسطنطينية ، مبعوثا هذه المرة للملك الألمانى امبراطور الرومان ، أوتو الأول • وكانت شكواه بصفة خاصة أيضا مما لقيه عند مغادرته العاصمة الامبراطورية ، من تفتيش دقيـــق لكل ما يحمـــــل من جانب موظفى الجمارك (٥٥) •

وقد درجت بيزنطة الى جانب اســتقبال هؤلاء الســفراء ، الى استضافة أبناء الأمراء والحكام المجاورين ، وذلك فى البلاط البيزنطى، واحاطتهم بهالة من مظاهر العظمــة والفخامة ، والترحيب بضـــحايا الحروب الأهلية فى الدول الخارجية كلاجئين سياسيين يمكن الاعتماد عليهم عند الضرورة لمصلحة السياسة البيزنطية • بل ان بيزنطة كانت تلح فى بعض الأحيـــان على عدد من الزعمـــاء لزيارتها ، من ذلك مثلا ما جرى مع أمير طارون Taron (٥٦) •

وتنوعت وسائل الاغراء والترغيب لهؤلاء السفراء الأجانب ، حتى ينقـــلبوا — كما ذكرنا — ممثلين لبيزنطة لدى دولهم ، وكان الفـــارق الحضارى الكبير بين الامبراطورية وهذه الشعوب المجاورة ، باستثناء الفرس ووالمسلمين كما قدمنا ، عاملا هاما وسلاحا فعالا فى نجاح هذا الأسلوب التأثيرى • فاستخدمت وسائل الترفيه والتســلية مع بعض

---

(٥٥) راجع نص التقـــرير فى مجموعة الوثائق الخاصـــة بالعصور الوسطى التى ضمها كتاب
Cantor, The Medieva World, New York 1968.
(56) D.A.I. XLIII.

الوفود (٥٧) ، وجرى الانعام على الموالين منهم بألقاب التشريف التى كان من أبرزها Magister, Patricius, , Hypatus • الى الحد الذى دفع هؤلاء الزعماء الى التنافس فيما بينهم للحصول على المزيد من الهبات أو الأموال أو الألقاب من الامبراطور(٥٨) ويضرب قسطنطين السابع المثل على ذلك بأهالى خرسون Cherson ، حين أنعم عليهم بألف رتبة عسكرية من درجة « رماة السهام » ، مع التأكيد بدوام ارسال المنح اليهم بانتظام (٥٩) • وكيف لا يتنافس القوم ، وهذه الألقاب كانت تجعل منهم أنصاف رومان « بسلوك متحضر ووقار لاتينى » (٦٠) ، ولا فرق فى ذلك بين الأمير البربرى فى أى منطقة ودوج البندقية الذى كان شغوفا لحمل لقب « بطريق » • كما كان الكثير من الأمراء حريصين على أن يتسلموا من يد الامبراطور شخصيا أشعرة السلطة الملكية مثل التاج الذهبى والرداء الحريرى المطرز بالذهب ، والذى يظهر الأمير من وجهة نظره شبيها بـ « البازيليوس » Basileus أى الامبراطور البيزنطى (٦١) •

وكانت العباءة الأرجوانية الامبراطورية بصفة خاصة ، تمثل لدى هؤلاء الأمراء شيئا رفيعا ، ومن ثم فلا غرو أن نجدهم يتهافتون

---

(57) Ibid, LIII.

(58) Ibid, XLIII - XLIV, XLVI-L, LI.

(59) Ibid. LIII.

(60) Diehl, Byzantium, p. 56.

(٦١) يتحدث قسطنطين السابع عن البشناق ، ويصفهم بأنهم طماعون جشعون ، لا يؤدون خدمة لأى فرد دون مقابل ، ولا يخجلون من كثرة طلبهم للهدايا والأشياء التى يندر وجودها عندهم لأنفسهم وزوجاتهم . كما يطلبها الشخص ارائق للمندوب الامبراطورى ، لنفسه ، لقاء جهده فى مرافقته واستخدام دوابه . ويقول انه عندما يصل المندوب الامبراطورى الى بلادهم يكون أول سؤال يوجهونه اليه ، يدور حول هدايا الامبراطور لهم ، ثم يعودون فيسألونه عن هدايا زوجاتهم ووالديهم » .

انظر D.A.I. VI, VII

للحصول على مثلها . لكن هذا كان يعد فى نظر الرومان امتهانا للتقاليد الامبراطورية [٦٢] ، اذ أن هذه العباءة من حق الامبراطور وحده ؛ واذا كانت الدبلوماسية قد وجدت فى هذه المظاهر ما يحقق لصانعيها السيادة على هذه الشعوب ، الا أن ذلك يجب أن يظل فى اطار معين لا يتعداه . كان من الجائز اهداء أردية قريبة الشبه ؛ لكنها ليست مثل الأردية الامبراطورية تماما ؛ وهذه الحقيقة لم يغفلها قسطنطين وهو يعظ ابنه بقوله . « اذا ما أقدم الخزر أو الأتراك أو الروس أو غيرهم من الشماليين والاسكيزيين Scythians على طلب ما اعتادوا عليه دوما ، أعنى بعض الأردية الامبراطورية أو التيجان أو الثياب الرسمية ، لقاء بعض خدمات يؤدونها ؛ فليكن قولك ان هذه الثياب أو التيجان ، لم تصنعها يد انسان ، ولا زينتها فنون بشر ، بل تنبئنا قصص التاريخ أن الله عندما اختار قسطنطين العظيم امبراطورا ، فكان أول امبراطور مسيحى [٦٣] ، أنعم عليه بهذه الثياب عن طريق ملاكه ؛

---

(٦٢) كانت الأشعرة والأردية الامبراطورية ، شيئا خاصا بالامبراطور نفسه دون غيره من الناس مهما علت مكانتهم أو سمت أصولهم ، ولا يسمح لأى انسان آخر بارتدائها ، لما فى ذلك من اعتداء على الحقوق الامبرطورية .. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث لبطريرك القسطنطينية فى القرن الحادى عشر ، ميخائيل كركولاريوس Michael Cerularius عندما أقدم على انتعال « الصندل » الامبراطورى ، منتهزا فرصة ضعف السلطة الامبراطوورية واضطراب الأمور على عهد اسحق كومننوس . وكان هذا يعنى مظهرا من المنافسة التدميجية للامبراطور فى سلطانه ، لابد تتلوها خطوات أخرى كما كان يؤمل البطريرك ، مما دفع الامبراطور الى الأمر بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ، ولم ينقذه من ذلك سوى موت الامبراطور .. أنظر PSELL. Chron VI

(٦٣) اختلف المؤرخون ولا يزالون ، حول مسحية قسطنطين ، منهم من رفعه مكانا عاليا فجعله أحد حواريى المسيح ، وأولئك هم مؤرخو الكنيسة . وآخرون يجعلونه أول امبراطور مسيحى ، جعل المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية . وبعض يجعله وثنيا مدافعا عن عقيدة الرومان الأسلاف . وفريق رابع يجعله امبراطورا بلا دين . عن كل هذه الآراء ، ورأينا فى هذه القضية التاريخية الشائكة ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى : قسطنطين ، دار المعارف ــ القاهرة ١٩٨٢

وكذا التيجان ، وعهد اليه أن يضعها فى الكنيسة المقدسة العظمى ، أيا صوفيا ••• وعلى المنضدة المقدسة حفرت هذه العبارات ••• اذا ما سولت لأى امبراطور نفسه أن يعطى شيئا من هذه الثياب لغيره ، حلت به اللعنة كخصم الله وعدو ، واستوجب صدور قرار الحرم الكنسى » (٦٤) •

ويبين من حديث قسطنطين السابع مدى الاحساس بـ «التفوق» الرومانى ، الذى يصل الى درجة « الشعب المختار » ، وهى الفكرة التى يعود بها أو بلنسكى (٦٥) عند الرومان الى جذور يهودية مسيحية ، متناغمة مع « العالمية » الرومانية ، والثقافة الأصلية المستمدة من الهللينية ، وهذا كله كان بالطبع كفيلا أن يجعل من الرومان فى نظر أنفسهم ، بل وفى نظر بعض معاصريهم أيضا ، « سادة » العالم فى زمانهم بلا منازع ، بحيث لا يمكن لأى شعب من الشعوب الأخرى أن يطاولهم سمت الحضارة وعلو الهامة •

ويتصل بالهدايا والخلع والثياب والألقاب ، جانب آخر من أكثر العوامل تأثيرا واستخداما من لدن صانعى السياسة البيزنطية الخارجية ذلكم هو المال •• فقد كان الاعتقاد الراسخ لدى الرومان ، أن لكل اسان ثمنه ، سواء كان أميرا بربريا لقبائل الهون Hunni الآسيوية ، أو كان جودفرى البويونى Godfrey du Bouillon دوق اللورين أو بوهيمند Bohemund النورمانى ، وكلاهما من زعماء الحملة الصليبية الأولى المبرزين ! فالمال — على حد تعبير شارل ديل — (٦٦) هو أسرع السبل وأقصرها طريقا للتأثير على هذه الشعوب المجاورة لبيزنطة ، ومن ثم كان ينظر الى المال من وجهة نظر الدبلوماسيين

---

(64) D.A.I. XIII.

(65) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 56.

(66) Diehl, Byzantium, p. 55.

البيزنطيين ، على أنه سلاح لا يمكن مقاومته ، وأثبتت الأحداث فعلا صدق نظرتهم • ولقد دفعت الحكومة البيزنطية مبالغ طائلة من الأموال منذ عهد جوستنيان فى القرن السادس ، وحتى باسل الثانى فى القرن الحادى عشر ، بل وبعد ذلك بقرنين آخرين أيضا لضمان ولاء هذه الشعوب المجاورة ، أو لتنفيذ مآربها السياسية الخارجية ضد دول أخرى ، أو على الأقل — وهو كثير — لضمان سكوتها وحيدتها أبان حروبها مع أعدائها • ويكفى أن نقرأ ما كتبه مؤرخ القرن السادس الأشهر ، بروكوبيوس Procopius القيسارى فى كتابه «التاريخ السرى» Historia Arcana لندرك حجم المبالغ التى أنفقها الامبراطور جوستنيان لاستمالة أمراء الهون والبربر والحبشة واللومبارد والجبيد والهيروليين والآفار الايبريين • بل ان ما قدمه لخزانة الملك الفارسى يكاد يعدل ما قدم لهؤلاء جميعا !! ومن ثم لم يسلم من النقد اللاذع الذى وجهه اليه بروكوبيوس فى كتابه • وجرى نفس الحال مع المؤرخ نيقتاس الخونياتى عندما صب جام غضبه ولومه على الامبراطور مانويل كومننوس ، للأموال التى بددها دون طائل على اللاتين فى ايطاليا والنورمان فى صقلية ، الى الحد الذى يحمله فيه نيقتاس مسئولية الكارثة التى حلت بالامبراطورية بعد وفاته بسنوات قلائل ، عندما تعرضت للسقوط فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤ بفعل جنود الحملة الصليبية الرابعة ، وفعال البابوية والبندقية والامبراطورية فى الغرب جميعا (٦٧) •

وقد استخدمت هذه الأموال فى كثير من الأحيان ، لايقاع الفرقة والانقسام بين القبائل المجاورة ، وأفلحت الدبلوماسية البيزنطية فى هذا الميدان وحققت نجاحا كبيرا باعتمادها على الأموال ، لتطبيق المبدأ الشهير الذى كان يؤمن به الرومان •• « فرق تسد » • وكان هذا أمرا

---

(٦٧) للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث ، يمكن الرجوع الى المصدر المعاصر الذى تناولها وكتبه شاهد عيان وهو : روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ .

لا مندوحة عنه كى تستطيع الامبراطورية مواجهة التهديدات التى تحيق بها من جانب الجماعات القبلية العديدة التى هطلت عليهـا منذ القرن الرابع وحتى العاشر الميلادى •

ويعطينا قسطنطين السابع تصويرا واقعيا للدبلوماسية البيزنطية فيمـا يتعلق بمـا يجب على ابنه أن فعـله ازاء القبـائل المجاورة للامبراطورية فى زمانه ، وهو يعد من أهم ما جاء فى كتـابه « عن الادارة الامبراطورية » •• فبيزنطة تخشى البشناق Pechenegs الذين كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من مصب نهر الدنيبر Danupe متجهـة غربا الى فم الدانوب Dnieper ، ويمثلون فى الوقت نفسـه مفتاح العلاقات السياسيه لبيزنطه مع بلاد الخزر Chazaria والروس والبلغار والهنغاريين • والامبراطوريه مع خشيتها من البشناق ، تخاف الروس والأتراك ، لكن خشيتها من البشناق تفوق خوفها من الأخيرين ، لذا فان بقـاء الامبراطورية على سـلام معهم ، يضمن عدم تعرض الأراضى الرومانية لهجمات الروس والأتراك ، وعدم مطالبتهم بفدية ضخمة من الرومان لقاء السـلام • واذا ازدادت العلاقات وثوقا بين البشـناق وبيزنطة عن طريق استمالتهم بالهدايا ، وأمكن بسهولة للبيزنطيين القفز على أراضى الروس والأتراك ، واستعبد نسائهم وأطفالهم وتدمـير أراضيهم — والحديث هنا لقسطنطين السابع — لذا كان ضروريا ارسال مندوبى الامبراطور [illegible] البشـناق محملين بالهـدايا والأموال لتجديد الاتفاق معهم وضم[illegible]لاة (٦٨) •

كان البشناق فى نظر قسطنطين السابع ، قادرين على خوض غمار الحرب ضد الروس [illegible] والترك ، لذا وجب استرضاؤهم كـل عام (٦٩) • وحتى [illegible] البيزنطية على هذا النحو تحت رحمة

---

(68) D.A.I. II-VI.

Ibid. VIII, XXXVII.

البشناق ، فانه يصبح من الضرورى استمالة « الغز » Uzes الى جانب الامبراطوية ، لأنه بمقدور هؤلاء مهاجمة البشناق (٧٠) والخزر (٧١) على حد سواء • والدبلوماسية تؤدى دورها بنجاح كبير فى هذا السبيل ، فتشـــجع الصرب Serbg ضد البلغار (٧٢) ، وتؤلب الخرسونيين على السارماثيين (٧٣) Sarmatians وتبحث عن حليف جديد تثيره ضـــد البشناق ، فتجده ى المجيار ، فترسل اليهم سفارتين خلال عامى ٨٩٤ ، ٩٢٧ تهدف من ورائهما الى حث هؤلاء على مهاجمة البشناق (٧٤) •

ولم يكن قسطنطين السابع فيما أورده مبتدعا ، ولا واضعا لقواعد الدبلوماسية البيزنطية ، كما ذكرنا من قبل ، لكنه كان يرصد ويســـجل تجارب السابقين من الأباطرة الأسلاف ، الذين وضعوا هذه القواعـــد موضع التنفيذ ، وبلغوا فى تطبيقها مبلغا من النجاح كان كبيرا ، فهاهو الامبراطور زينون Zeno فى أخريات القرن الخامس الميلادى ، لايرى أمامه سبيلا كى ينقذ القسطنطينية من ضربات قبيـــلة القوط الشرقيين Ostrogoths الموجعة ، الا أن يوجـــه زعيمهم ثيودوريك Theodoric صوب ايطاليا ، التى كانت قاعدة الامبراطورية الرومانية قديما ، والتى ضاعت منذ سنوات قلائل (٤٧٦) على يد القـــائد الجرمانى أودواكر

---

(70) Ibid. IX.

(71) Ibid. X.

(72) Ibid. XXXII.

(73) Ibid. LIII.

(٧٤) Ibid: XXXVIII-XL. ويمكن مراجعة أحداث هذه الفترة الهامة فى تاريخ الدبلوماســـية البيزنطية من خـــلال علاقات بيزنطية مع الشـــعوب المجاورة ، فى

Obolensky, The Byzantine Commonwelth, London, 1971 ;

Ostrogirsky, History of the Byzantine State, Oxford, 1956;

asiliev, A history of the Byzantine Empire, vol. 2, Madison and Mil-Wauke, 1964.

Odovacer فضرب بذلك العنـــاصر الجرمانية ببعضـــها لتخلص لهـ القسطنطينية وأرباضها •

وقد طبق الامبراطور ستنيان ، أســتاذ الدبلوماسية البيزنطية بلا منازع ، هذه السياسة ببراعة كبيرة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فراح رجاله يؤلبون القبائل ضد بعضـــها ، ويؤججون نيران التنـــافس الذى يصل الى حد الكراهية فيما بينهم ، فيستبقون للحصول على عون بيزنطة ضد بعضهم بعضا ، وليس أيسر من ذلك لضمان خضوع شعوب هذه المنـــاطق (٧٥) • هــذا فى الوقت الذى حرص فيه على اســترداد ولايات الغرب الرومانى التى استولى عليها الجرمان ، وأقاموا عليهـــا ممالك لهم ، وشراء ســكوت الفرس بجزية سنوية ضخمة يؤديهـــا • وأفلحت أمواله وسائسه ومظاهر العظمة البادية فى عاصمته ، وجيوشه فى اخضـــاع المناطق الواقعة الى الشـــمال من حدود الامبراطورية ، لسلطانه ، واسترداد أفريقيا وايطاليا وأجزاء من اسبانيا •

وتمدنا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة ، بمعلومات وفيرة عن السياسة التى اتبعها جوستنيان تجاه القبائل النـــازلة الى الشمال الشرقى من الحدود الامبراطورية ، خاصة منطقة شـــبه جزيرة القرم والمناطق المحيطة بالبحر الأسود ونهر الدانوب ، فقد راح يؤلب بعض عشـــائر القوط ، الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية ، ضـــد الهون الوثنيين ، حيث استقبل منهم وافدا قدم الى القسطنطينية سرا ، وعهد اليهم القيام بتدبير الفتن والمؤامرات واقامة الاضطرابات فى صفوف الهون (٧٦) بل استخدم بطون الهون ضد بعضهم ، فأوعز الى جمـــاعة أوتيجور Utigur بمهاجمة جمـــاعات الكوتريجور Kotrigurs بحجة الحصول على كنوز الذهب التى استولى عليهـــا الأخيرون من أراضى

---

(75) AGATH. historia, pp. 332-333.

PROCOP. de bell Gothic, VII, 273.

الامبراطورية ، وابتلعت الجماعة الأولى طعم الخديعة ، ونجحت الدبلوماسية هنا فى الخلاص منهما معا بأيديهما (٧٧) • وعلى جبهة الدانوب استقطبت الامبراطورية قبائل الأنطاى Antae وأغدوت عليهم الأموال لتوجههم ضد البلغار (٧٨) ولم يجد جوستنيان ما يمنعه من أن يستخدم قبائل الآفار Avares من بعد ضد الأنطاى أنفسهم ، عندما دعت الضرورة الى ذلك !! (٧٩) •

وقد انتهج الامبراطور موريس Mauricius فى أواخر القرن السادس ، السياسة نفسها فى تحريض ملك الفرنجة « شيلدبرت Childebert ضد اللومبارديين Lombards لقاء مبلغ ضخم من المال • ودارت المراسلات فى القرن التاسع بين الامبراطور ثيوفيلوس Theophilus المعمورى ، وبابك الخرمى ، الذى أشعل نيران التمرد ضد العباسيين على عهد الخليفة المعتصم بالله ، وتم الاتفاق على اعلان الفتنة فى الداخل بينما تتقدم جيوش البيزنطيين باتجاه الحدود الاسلامية ، ليقع المعتصم بين شقى الرحى • لكن المعتصم فطن الى هذه الخطة وفوت على الامبراطورية الفرصة ، حين بادر أولا بالقضاء على فتنة بابك الخرمى ، قبل أن تتصل قواته بقوات ثيوفيلوس • مما دفع الأخير الى تخريب بعض المدن الاسلامية فى آسيا الصغرى ، ومن بينها « زبطرة » التى يقال انها كانت مسقط رأس المعتصم • وقد قام الخليفة العباسى بملاحقة جيوش ثيوفيلوس ودمر مدينة « عمورية » التى ينتسب اليها الامبراطور ، ليمتدحه شاعر العربية أبو تمام ببائيته الشهيرة •

---

(77) AGATH. historia, pp. 330-335.
وايضا MENEA, excer. Legat. Rom. p. 345.

(78) PROCOP. de bello Gothico, VII, p. 273.

(79) MENAN. excer. Legal. Rom. p. 344.
وايضا MALAL. Chron. p. 489.
وكذلك EVANG. historia ecclesiastica, p. 425.

وما فعلته الأسرة المقدونية بعد ذلك خلال القرن العـاشر ، من استـغلال الصراعات القائمة بين المسـلمين ، خاصة خلافتى بغـداد العباسية والقاهرة الفاطمية ، لضرب القوى الاسلامية التى كانت تهدد الحدود المصالح البيزنطية فى بلاد الشام ، شىء لا يمكن تجـاهله • ولعل أبرزها ما كان حادثا بالفعل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، بينما يقف العباسـيون والفاطميون موقف المتفرج ، بل ويظهـرون الرضى لتحطيم قووة الحمدانيين على يد البيزنطيين ، الذين أفلحوا عآ طريق استغلال هذا الموقف فى الوصول بجيوشهم الى تخوم بيت المقدس •

وقد تعرضت الامبراطورية فى آخر سنى القرن الحـادى عشر ، لكارثة خطيرة كادت تودى بها ، ممثلة فى الحملات الصـليبية ، التى وضعت فى اعتبارها منذ البداية الاسـتيلاء على القسطنطينية • ولولا الدبلوماسية البارعة التى مارسها آل كومنين الثلاثة ؛ ألكسيوس الأول Alexius I وابنه يوحنا وحفيده مانويل ، لتعرضت الامبراطورية للضياع منذ السنوات الأولى للحرب الصليبية ؛ كما حدث لها بالفعل من بعـد سنة ١٢٠٤ • ويكفى أن نقرأ فقط ما كتبته الأميرة « أنا كومننا » Anna Comnena ابنة ألكسيوس فى كتابها الـ « ألكسياد » Alexiad عن وسائل الدبلوماسية التى استخدمها أبوها مع زعماء الحملة الصليبية الأولى ، باغداق الأموال والهدايا ، والخلع والألقاب ، ومنح الاقطاعات •• والتقريب ، وتحريض بعضـهم ضد بعض • وكان أبرز مثـالين واضحين لذلك ، موقفه حيال كل من بوهيمند النورمانى ، وريموند أمير تولوز • وليس ببعيـد عن ذلك ما فعله حفيده مانويل مع كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثـالث ملك ألمانيا ؛ اللذين قادا الحمـلة الصليبية الثاضكة •

والى قلب أوروبا الغربية وصلت أصابع الدبلوماسـية البيزنطية فى القرن الثـانى عشر ، عندما ازدادت حـدة التوتر بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومننوس ، والملك الألمـانى فردريك بربروسـا ،

امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، بعد أن نظـــر الأخير الى نفسه باعتباره الامبراطور الشرعى للرومان ، ضاربا عرض الحائط بالشرعية والحقوق التاريخية لأباطرة الرومان فى الشرق • ومن ثم دارت المراسلات بين كل من مانويل كومننوس والأمير هنرى الأسد دوق ســـكسونيا ، والذى كان يعد أحد الأفصـــال الاقطاعيين لفردريك بربار وسا ، ويحمل فى الوقت ذاته العداء التقليدى القـــائم بين عائلته « الولفيين » وعائلة « الهوهنشتاوفن » التى ينتمى اليها فردريك • ولذا فقد اســـتقبل فى بلاطه فى سكسونيا ، ســـفراء من لدن الامبراطور البيزنطى ، من وراء ظهر الملك الألمانى ، ورفض موافقة سيده فى حملته الخامسة الى ايطاليا ، مما أدى الى هزيمة فردريك عند لبنان Legnano ســـنة ١١٧٦ على يد مدن العصـــبة اللومباردية [٨٠] • بل ان مانويل استخدم أمواله وسلاحه أيضا لاثارة النورمان فى صقلية ضـــد النفوذ الألمانى •

وحتى القرن الثالث عشر ، والامبراطورية البيزنطية العائدة على يد ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus ظلت سياسة « فرق تسد » ، تتصدر قائمة عمد الدبلوماسية ، فى وقت عانت فيـــه الخزانة النقص الـــكامل فى الموارد المالية ، فمنح الجنوية امتيـــازات ضخمة فى القسطنطينية ، ليضرب بهم المصالح التجـــارية والسياسية لجمهورية البندقية ، التى كانت سببا رئيسيا فى ســـقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، ونجح بذلك فى استعادة الامبراطورية • ولما وجد نفســـه من جراء هذا فى مواجهة حلف كونه شارل كونت أنجـــو ، الذى احتل

---

(٨٠) راجع هذه الأحداث وتفصيلاتها فى
Brooke, A history of Europe from 911 to 1198, pp. 51-501-503.

وراجع أيضا للباحث : الملكية الألمـــانية بين الوراثة والانتخابات فى العصور الوســـطى ، مجلة ندوة التـــاريخ الاســـلامى والوسيط ، المجلد الثـــانى ، ص ٢٤ ــ ١٢٧

صقلية بدعوة من البابوية للقضاء على بقايا أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية في الجزيرة ، ويضم هذا الحلف ، البابوية ، وبلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية اللاتيني المخلوع ، وليم فيلهاردوان ، الذي كان قد هـزم مؤخرا على يد ميخائيل في المورة ، والبلغار • أدرك ميخائيل أن السلاح التقليدي للخارجية البيزنطية ، وهو الدبلوماسية البارعة ، خير وسيلة للافلات من هذا الخطر ، فوجه القبيلة الذهبية المغولية ضد البلغـار ، وسلاحفة الروم والمجيار ضد الصرب ، وصالح لويس التاسع نفسه وهو الذي كان أخا لشارل كونت أنجو ، وأعان الصقليين ضـد ملكهم الفرنسي • فانفرط عقد الحلف •

ولكي تصبح هـذه الوسائل الدبلوماسية ناجعة ، كان لابد أن يدعمها صانعـوها باقامة حائط بشري دفاعي على امتداد حـدود الامبراطورية ، بقي جسم الدولة الرئيسي نفسه مغبة هذه الهجمات التي لا تنقطع ، وتمثل ذلك في حرص بيزنطة على وجود عـدد من « الدول الحاجزة » في المناطق التي تتعرض بصفة دائمة للإخطار ، فالفساسنة على الحـدود الشرقية أدوا دورهم كاملا لزمن طـويل ، دفاعا عن الامبراطورية ، في مواجهة الاعتداءات الفارسية المسـتترة وراء دولة اللخميين المناذرة • وجماعات الآلان Alan كانت تشكل قوة متقدمة لمراقبة ما يجري في المنطقة القوقازية ، وكان لهم فضل اطلاع بيزنطة على كثير من التحركات العسكرية الفارسية تجاه حدود الامبراطورية[81] •• والقوط الغربيون Visigoths أمل بهم الامبراطور فالنز Valens في سـبعينيات القرن الرابع ، أن يشـكلوا درعا واقيـا يحمي منطقة البلقـان من غزو الهون الآسيويين • والبشـناق والصرب والبلغـار والأرمن ، قاموا جميعـا بنفس الدور في فترات التـاريخ البيزنطي المختلفة • ولعل هذه الناحية تتضح أهميتها بصفة خاصة منذ القـرن الحادي عشر الميلادي ، عندما أهملت الامبراطورية سياسة اقامة الدول

(81) Dvornik, op. cit., p. 170.

الحـــاجزة ، بل وساهمت بنوع من قصر النظر السياسى عنـــد بعض أباطرتهـــا ، لتحقيق نفوذ أكثر اتســـاعا ، فى هذا الخسران ، عنـــدما اجتاحت جيوشها أرمينيا وضـــمتها للامبراطورية وحولت بلغـــاريا الى ولايتين بيزنطيتين ، فأصبحت الحدود البزنطية فى الشرق والشـــمال الغربى مكشـــوفة مباشرة لشعوب أخرى تقـــع خلف هاتين الدولتين ، وتتتأهب للقفز على بيزنطة •

وفى اطار هذه السياسة الذكية ، كانت الدعامة الرئيسية فى الأعمال الحربية للامبراطورية ، تتمثل فى حرص ادارة الخارجية فى القسطنطينية على تجنب الدخول فى حرب على جبهتين فى وقت واحد ، اذا كان ذلك يشكل خطرا مدلهما ، فمع تكاثر الأعـــداء الذين أحاطوا بالامبراطورية من كل جانب ، كان يبدو مستحيلا مواجهة هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، أو العمل على جبهتين بنجـــاح تام فى كل منهما ، لذا كان نجـــاح الدبلوماسية هنا كبيرا • فاذا كان عليها أن تحرك قواها العســـكرية فى ناحية معينة ، كان عليها بالتالى أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى فى الناحية الأخرى ، ربما لا يقل عن النصر العسكرى •

وكان الامبراطور جوستنيان مثالا يحتذى فى تطبيق هذه القاعدة ، فمع طموحاته الواســـعة لاسترداد الولايات الرومانيـــة فى الغرب ، المتطابقة مع الفكر السياسى الرومانى القـــائم على عالمية الامبراطورية ووحدتهـــا وتوحدها ، والتى عبر عنها بوضوح فى احدى تشريعـــاته بقوله : « لدينـــا أمل كبير فى أن يأذن الله لنـــــا باسترداد أراضى الامبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت » (٨٢)• الا أنه لم يكن بغافل عن الأطماع الفارســـية فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، فالفرس كان يعنيهم فى المقام الأول ، الى جانب التوسع السياسى والنفع الاقتصادى ، الوصول الى مركز الثقل الحضارى فى

---

(82) IUS. novella XXX, 11.

العـــالم آنذاك ، أعنى البحر المتوســط ، وهو ما كانت الامبراطورية البيزنطية تعتبره حقا خاصا بها ، ومن ثم فانه لأهمية هذا الصراع الذى يتدو فى ظاهره سياسيا واقتصــاديا ، وفى جوهره حضــاريا ، حرص جوستنيان على أن لا يدع الفرصة للفرس كى يحققوا مآربهم •

لهذا •• نرى جوستنيان يقدم فى السنوات الأولى من عهده على تحريك قواته العسكرية على جبهة الفرات ، دون أن يبغى من وراء ذلك اكتساب أراضى جديدة ، بل فقط دفع الفرس الى الدخول فى مفاوضات للتوصل الى اتفاق يؤمن ظهره أثناء اســتدارته لحرب الجرمان • فكان على استعداد لدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لقاء أن يدعــوه وشأنه لتحقيق آماله فى الغرب الامبراطورى • ولم يكن ذلك يغيب عن بصيرة الفرس ، ولذا كثيرا ما نراهم يحركون مهماز جيوشهم على جبهة الفرات هم الآخرون ، ابتغاء مزيد من الأموال من الخزانة البيزنطيــة • بل ان أطرف ما يمكن أن يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره بروكوبيوس من أنه عقب انتصار جوستنيان على الوندال Vandals فى شمال أفريقيــا ، واسترداد الولاية للســيادة الرومانية ، طالب ملك فارس بجــزء من الأموال والغنائم باعتباره شريكا فى هذا النصر الذى تحقق لوقوفه على الحياد أثناء المعارك • وقد انصاع جوستنيان لمطالب الملك الفارسى من أجل استكمال مشروعاته فى الغرب ، وان كان قد اعتبر هــذه الأموال نوعا من الهدية !!

ولعل هذه النظرة المتبــادلة بين الجانبين تفسر لنــا تجدد عقد «معاهدات السلام» بينهما أكثر من مرة ، وذلك فى أعوام ٥٣٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٢ • وفى المعاهدة الأولى كان على بيزنطة أن تدفع لفارس ســنويا أحد عشر ألف رطل من الذهب • وفى الأخيرة والتى أمل الجانبــان أن تستمر خمسين عاما ، دفعت بيزنطة مقــدما مبلغ ثلاثين ألف رطل من

الذهب باعتباره أقساط سبع سنوات كاملة (٨٣) • وكان جوستنيان قد شغل نفسه ودولته وجيشه وخزانته على امتداد خمس وعشرين سنة كاملة ، ابتداء من عام ٥٣٢ بالحرب فى محاولة لاسترداد النصف الغربى من الامبراطورية ، ولم يكن على استعداد أن يحارب الفرس والجرمان فى وقت واحد (٨٤) •

ووفى عام ٦٢٦ تعرضت الامبراطورية لخطر مدلهم مزدوج ، فالفرس اكتسحوا الولايات الشرقية للامبراطورية ، ووقفوا قبالة القسطنطينية على الشاطىء الآسيوى للبسفور ، بينما ألقى الآفار حصارهم عليها من الناحية الأخرى ، بينما الجيوش البيزنطية تعمل تحت قيادة الامبراطور هرقل Heraclius على الأراضى الفارسية نفسها •• والعاصمة من الجند خالية • على أن الذى يعنينا هنا ، أن هذا الحصار المزدوج كان اختبارا وتحديا حقيقيا للدبلوماسية البيزنطية لقهرها على التخلى عن قاعدتها الأساسية ، بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد • وفى سبيل ذلك وصل الفرس صفوفهم بالآفار ، بعد الدرس العملى الذى لقنوه زمن جوستنيان • غير أن الدبلوماسية البيزنطية فوتت على الفرس هدفهم ، ونجحت فى عزل الآفار عنهم بوسائلها المعروفة ، واستخدمت الكروات لتحطيم شوكة الآفار (٨٥) •

---

(83) PROCOP. de bello, I, pp. 133-5.
MENAN. excer. Legat. Rom. pp. 359-363.

(٨٤) لدراسة نشاط جوستنيان العسكرية ، يفضل الرجوع ، بالاضافة الى ما كتبه بروكوبيوس ، الى المراجع الحديثة التالية .
Bury, history of the Later Roman Empire, Vol. 2. London 1931.
وأيضا Jones, Later Roman Empire, Vol. I, Oxford, 1964.
وله كذلك
The decline of the Ancient World, London 1975.
وراجع كذلك
Holmes, The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London 1912.

(85) Dvornik, op. cit., p. 182.

وتتجلى براعة الدبلوماسية فى الوقوف على الأهداف الحقيقية لأعدائها ، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا • ففى القرن الحادى عشر ، وقعت الامبراطورية بين شقى الرحى ، الأتراك السلاجقة من الشرق ، وذلك بعد انتصارهم بزعامة السلطان ألب أرسلان على الامبراطورية فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١ ، ووقوع الامبراطور دومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes فى الأسر ؛ ومن الغرب كان النورمان • وأدركت ادراة الخارجية البيزنطية أن الخطر الحقيقى يتمثل فى هؤلاء الأخيرين ، على الرغم من أن آسيا الصغرى كانت تعتبر من الناحية العملية فى قبضة السلاحقة • لكن هؤلاء لم يكونوا قد وضعوا فى خطتهم حتى الآن ، فكرة القفز على القسطنطينية ، بل كانوا مشغولين باقامة امبراطورية اسلامية فى ظل السيادة العباسية ، ولم تأت الخطوة التالية بالاتجاه نحو الغرب الا على عهد سلطانهم الأشهر ملكشاه ووزيره نظام الملك • أما النورمان فقد داعبتهم الآمال تحت زعامة عائلة هوتفيل Hauteville ممثلة فى روبرت جويسكارد Robert Guiscard وبوهيمند Bohemund من بعد ، حول امكانية اقامة امبراطورية نورمانية عاصمتها القسطنطينية ، ولم يذهب هذا التفكير من مخيلتهم حتى قيام الحروب الصليبية • لذا لم يتردد البيزنطيون لحظة فى مهادنة السلاحقة ، وتوجيه قواهم كلها للتصدى للخطر النورمانى ، مستعينين فى هذا المجال بقوات سلجوقية (٨٦) •

ولو حاولنا أن نسير مع قسطنطين السابع فى عرض نماذج معينة لما تضمنه كتابه حول هذه القاعدة القاضية بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد لاحتاج الأمر الى الكثير من الصفحات • فقد عرض لكثير من جوانب السياسة البيزنطية فى هذا السبيل ، وبوجه خاص فى

---

(٨٦) مطامح الجرمان ومشروعاتهم لاقامة امبراطوريتهم — راجع
Haskins, The Normans in European History, New York, 1966.

المنطقة الواقعة الى الشمال من الحدود البيزنطية ، والتى كانت تشكل بؤرة اهتمام القسطنطينية فى القرن العاشر (٨٧) •

والآن •• وقبل أن نطوى الصفحة الأخيرة من صفحات قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، لا يمكننا أن نغض الطرف عن أحد أسلحتها الفعالة ، والتى لم يكن دورها يقل أهمية وبعد أثر عن الجوانب الأخرى التى تناولناها ، بل ربما فاق بعضها أحيانا ، نعنى بذلك التبشير بالمسيحية بين هذه الشعوب المجورة ، خاصة وأن القسطنطينية كانت تعتبر نفسها درع الأرثوذكسية وقلعة المسحية الشرقية ، وآمن الأباطرة أن واجبهم ، باعتبارهم نواب المسيح على الأرض ، يحتم عليهم نشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية المحيطة بالامبراطورية • لهذا لقيت كنيسة القسطنطينية التأييد الكامل ، بل والحث من جانب الأباطرة فى هذا السبيل ، فقد كان امتداد النفوذ الروحى لكنيسة القسطنطينية فى منطقة ما ، يستتبع بالضرورة امتداد سلطان الدولة السياسى الى هذه المنطقة •

لقد سارت عملية التبشير جنبا الى جنب الغزو ، فالكاهن المسيحى كان يمهد الطريق تماما لرجل السياسة ، حيث يسبقه الى أراضى « البرابرة » ليعرض على الناس هناك ديانته ، ويسعى بصفة خاصة الى جذب النساء أولا ، حيث كان يستهويهن غموض العقيدة الجديدة ، ويصبح من السهل بعد ذلك التأثير على الرجال من ذوى العقول البسيطة (٨٨) ، ولقد ضربنا على ذلك مثالا بمبعوثى فلاديمير الروسى وما قالوه عن القسطنطينية وكنائسها بين يدى زعيمهم • وقد شابههم فى ذلك القوط والقفجاق والكروات والصرب والموارافين والبلغار ،

---

(٨٧) الى جانب كتاب De Administrando Imperio راجع أيضا Obolensky, The Byzantine Commonwelth, pp. 69-236.

(88) Diehl, op. cit, p. 59.

وغيرهم كثير • ولم يأخذ هؤلاء عن البيزنطيين دينهم فحسب ، بل عالمًا كاملا من الأفكار المشاعر والعادات ومظاهر الحضارة بصفة عامة (٨٩).

لقد كانت السياسة التبشيرية التيمارستها الامبراطورية البيزنطية بصورة لا تعرف الكلل ، تدور فى اطار « العالمية » Oikoumene التى يرتكز عليها الفكر الرومانى ، فالبيزنطيون يعتقدون أنالتنظيم السياسى للعالم ، ان هو الا جزء من الغاية العــالمية لله ، ويرتبط أساسا بفكرة « الخلاص » الانسانى • ومن ثم فان « عالمية » الامبراطوريةالرومانية مهدت الطريق فى ظل العناية الالهية أمام انتصار العقيدة المســيحية على الوثنية • وعليه غدت مهمة الرومان ، حمل لواء الخــدمة من أجل المسيح ، والتبشير بالانجيل بين كل شعوب الأرض (٩٠) ، فلا غرابة اذن أن يصبح مفهووم « السلام الرومانى » Pax Romana يعادل «السلام المسيحى » Pax Christiana وأن تتواكب اهتمامات الامبراطورية مع تعزيز الايمان المسيحى (٩١) • وبناء على ذلك كان للأمبراطور البيزنطى السيادة الكاملة على كل الشعوب المسيحية بوصفة — كما قدمنا — نائب المسيح على الأرض • لقد ظل هذا المفهوم حيــا فى الامبراطورية حتى أيامنا الأخيرة،ففى القرن الرابع عشر أبدى أسقف القسطنطينية تشجيعه الكامل لما فعله دوق موسكو من الاقدام على حذف اسم الامبراطور من سجلات الكنيسة الروسية ، اذ كتب الأســقف اليه يذكره بالالتزامات الواجبة عليه تجاه الامبراطور العالمى ، ويوضح له بما لا يدع مجــالا للشك ، امتداد ســلطان الامبراطور البيزنطى على روســيا ، قائلا : « أى بنى ••• لقد تم تعيين •• ملك الملوك » Basileus و « الحــاكم

(٨٩) Bury, history of the Lat. Rom. Emp. II, p. 292. وايضا

(90) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 55.

(91) Id.

المطلق » Autokratn للرومان ، ليرعى المسيحيين جميعا [٩٢] • ولذلك فان هذا التمرد من جانب الدوق الروسى ضد القاعدة الأساسية « للعالمية » Oikoumene كانت مجرد استثناء لا أكثر ، اذ سرعان ما كتب ابنه وخليفته ، باسل ، الى الامبراطور قسطنطين الحادى عشر، آخر أباطرة بيزنطة قائلا ، « لقد تسلمت سلطانك الامبراطورى العظيم ••• لاقرار المسيحية الأرثوذكسية فى مملكتك ، ولتقدم العون كل العون لنا دنيا ودينا » [٩٣] •

ويكفى أن نرتد على آثارنا قصصا ، عبر ألف ومائة من السنين ، هى الفاصلة بين قسطنطين الأول وسميه الحادى عشر هذا ، لندرك أن هذا المفهوم عن سلطان الامبراطور « نائب المسيح Vicarius Christi و « عالمية الامبراطورية التى ظلت قائمة حتى القرن الخامس عشر ، كانت واضحة منذ البداية فى القرن الرابع ، تمثلها هذه العبارات التى وردت فى رسائل قسطنطين الأول ، رغم الشكوك حول مسيحيته ، والتى جاء فيها « لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقد صلاحها لانقاذ مشيئته ، وعليه •• فانه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد ، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، وتستتر الشمس فيها بالأفق ، وبمدد الهى ، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشرسادت آملا ، وأداتيتى للرب كثير خطوى ، أن يرعى البشر ناموس الاله المقدس ويزدهر بهدى يديه المقتدرتين معتقدنا الطوباوى [٩٤] ويضيف « ••• بفضل جهدى ، ولأنى لله نعم الخادم ، آمن البرابرة بعبادة الرب ، وماذلك الا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب ،

(92) Ibid, p. 54.

(93) Id.

(94) EUSEB. Vita Constantini, III 57.

ولأنهم من خشـــيتنا أدخلوا الى المعرفة الحقة للاله الذى هـــم الآن بعبادته قائمون » (٩٥) •

وقد ساعد على نجاح السياسة البيزنطية فى مهمتها التبشيرية ، وبالتالى امتداد نفوذ الامبراطورية الى مناطق جديدة ، أن منطقة البلقان كانت تشهد بصفة مستمرة ، موجات اثر موجات من الشعوب الوثنية التى تتابعت على المنطقة ابتداء بالعناصر الجرمانية منذ القرن الرابع الميلادى ، وانتهاء بالقبائل لتركية والصقلية فى القرون من الثامن الى العاشر • وكان فتح المسلمين للولايات البيزنطية فى الشرق ، سوريا ومصر وأفريقية ، عاملا هاما جدا فى تخلص الامبراطورية — كارهة — من المناطق التى كانت بؤرة الخلافات العقيدية مع القسطنطينية • ثم جاء عدم تمكن المسلمين من اسقاط القسطنطينية خلال الحصار الذى فرضـــوه عليها سنة ٧١٧ للميلاد ، نجاحا كبيرا للسياسة التبشـــيرية البيزنطية فى منطقة البلقان ، التى كانت تموج آنذاك بالشعوب الوثنية ، التى تحـــولت تباعا الى المســـيحية الأرثوذكسية عـــلى يـــد المبشرين البيزنطين • ولاشـــك أن الخســـارة التى منى بهـــا المسلمون أمـــام القسطنطينية الآن ، تفوق بكثير هزيمتهم بعد ذلك بسنوات قلائل فى أقصى الغرب على يد شارل مارتل Charles Martel فى موقعة بلاط الشـــهداء (تور — بواتييه) ، اذ لو تمكن المســـلمون من فتـــح القسطنطينية آنذاك ، لوجدوا تربة خصبة للدعوة للاسلام فى منطقة البلقان ، على العكس من فرنسا فى الغرب ومن ورائها ايطاليا • كما أن الامبراطورية سرعان ما اجتازت أزمة الحروب الأيقونية التى شغلت معظمهم عهود أباطرة الأسرتين الأيزورية والعمودية ، لتنطلق بعد ذلك بكامل طاقاتها للتبشير بالمسيحية فى منقطة البلقان ، التى أمست من بعد عن طريق العقيدة ، داخله ضمن « عالمية » الامبراطورية ، أو الدوران فى فلك نفوذها •

(95) Ibid. IV, 9-13.

وتجات خطورة الدبلوماسية البيزنطية فى هذه الناحية ، باستخدامها تلك المسألة العقيدية سلاحا رفعته القسطنطينية فى وجه كنيسة روما ، التى حاولت أن تجد لها مكانا ، ولعقيدتها الكاثوليكية موطىء قدم فى تلك المنطقة • وبلغ الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، يساندها الأباطرة ، حدا بعيدا أضاف الى الرصيد العدائى بينهما بعدا جديدا ، حتى لقد وصل الأمر عند كل منهما الى حد تقديم تنازلات على حساب العقيدة أحيانا ولقوانين الكنيسة أحيانا أخرى ، لاسترضاء هذه الشعوب • لكن الجولة الأخيرة فى هذا الاضطراع كانت لصالح القسطنطينية (٩٦) • وليس أدل على ذلك من أنه خلال السنوات الأخيرة من عمر الامبراطورية ، وفى القرن الرابع عشر ، عندما خارت قواها ، وغلبها على أمرها أعداؤها ، خاصة السلطنة العثمانية الناشئة ، راح بعض من أباطرتها مثل يوحنا الخامس باليوجوس ومن بعده ابنه مانويل ، يتوجهون تلقاء الغرب وروما يطلبون العون العسكرى ، وكان الثمن فادحا ، يتمثل فى تخليهم عن الأرثوذكسية ، العقيدة التقليدية للامبراطورية ، وجوهر « العالمية » المسيحية لبيزنطة ، وتحولهم الى الكاثوليكية • رغم أن الغرب لم يقدم شيئا مطلقا سوى التمنيات الطيبة !! فى هذه الظروف الحالكة وقفت الكنائس البلقانية اتى تدين بالأرثوذكسية ، لترفض اتجاه الأباطرة هذا وتعلن تمسكها بعقيدتها التقليدية ، محافظة على التقليد الامبراطورى الجوهرى • وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى ، بدا لأعين المماليك الصقلبية ، أن المسئوليات الامبراطورية الرومانية والمسيحية قد ألقيت اليها ، وتزوجت صوفيا Sophia احدى أميرات أسرة باليولوجوس من ايفان Ivan الموسكوفى !! •

---

(٩٦) يمكن الاوقوف على تفصيلات هذه الأمور فى :

Ware, The Orthodox Church, Penguin book, 1967.

والآن •• يبدو أن علامة الاستفهام الكبـــيرة التى كانت تطرح نفسها فى أول الحديث ، قد وجدت لها الآن اجابة مقنعة ، فالدبلوماسية البيزنطية كانت تشكل بلا ريب ، القوة الرئيسية الى جانب الجيش فى الحفاظ على ســـلامة الامبراطورية طيلة هــذه القرون • وكان تنوع أساليبها بين الزواج السياسي والاغداق بالمح والهدايا والألقاب والثياب والأموال ، وستقبال الوفود واستضفة أبناء الحكام الأجانب فى البلاط ، واستخدام الوقعية بين القبائل ، واقامة الدول الحاجزة على الحدود الطويلة للامبراطورية ، ولتبشير بالمسيحية بين الشعوب الوثنية ، دليلا عمليا على قدرة صانعى السياسة ابيزنطية على التمكين للامبراطورية عبر ألف ومائة من السنين • ومع الحفاظ على قواعد الدبلوماسية فى جوهوها ، الا أن المرونة كانت أهم سماتها • واذا كان الجيش هو الذراع القوية للامبراطور البيزنطية ، فلا شك أن الدبلوماسية كانت ذراعها الطويلة !

المصــادر والمراجــع

أولا : المصــادر

AGATHIAS, Historia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1828.

ANNA COMNENA, Alexiad, trans. by E.A.S.Dawes, London, 1967.

ATHANASIUS, Apologia ad Constantium, in Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff and Henry Wace, Vol IV, Michigan 1891.

CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS,
De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest 1949.

EUSEBIUS, Vita Constantini, in Nicene Fathers, Vol. I. pp. 481-559, Michgan 1891.

EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, Londin 1854.

IULIANUS, epistola ad Basilium, (Basilius, epp. XL) in Nicene Fathers, Vol. VIII, pp. 141-142.

IUSTINIANUS, Novellae, trad. in Francias par Bereinger fils, Paris, 1811-1812.

MALALAS, Chronographia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiaoe Byzantinae, Bonn 1831.

MENANDRUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. B.G. Neiburhr, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1840.

PROCOPIUS, — De Bello Gothico, trans. by H.B. Dewing New York 1914-1940.
— Historia Arcana, trans. by G. A. Williamson, London, 1969.

PSELLUS, Chronographia, trans. by E.R.A. Sewter, Penguin book 1966.

EOCRATES, Historia Ealesiastica in Wicene Fathen Vol II, 1-178.

ثانيــا : المراجع

Brooke (Z. N.), A history of Euroe from 911-1198, London 1966.

Bury (J.B.), History of the Later Roman Empire, 2 oVls. London 1931.

Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury in 8 vols. Cambridge 1964.

Cantor (N.), The Medieval World, New York 1968.

Diehl (Ch.), Byzantium, Greatness and Decline, New Jersey 1957.

Dvornik (F.), Origins of intelligance Services, New Jersey, 1974.

Haskins (Ch.) The Normans in European history, New York 1966. German in 5 Vols. Edinburgh 1972.

Hefele (C.J.) History of the Councils of the Church, trans. from the The Gersman in 5 Vol. Edinbuseh. 1972.

Holmes (W.), The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.

Jenkins (R.) — Byzantium, The imperial centuries, A.D. 610-107. London 1966.

— Connrentevyon De Adminshrands Jones (A H M) Empeis Voe II Ghs Declin & Aneirt world London 1978.

— Later Roman Empire, 5 Vols. Oxford 1964.

Obolensky (D.), — The Byzantine Commonwealth, eastern Europe, 500-1453, London, 1971.

— The principles and methods of Byzantine diplomacy, in Acts du XIIe Congrès international D'études Byzantines, Ochride 10-16 September 1961, Beograd 1963.

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey, Oxford 1956.

Percival (H.R.), The Seven ecumenical Councils, Nicene Fathers, Vol. XIV, Michigan 1891.

Ure (P.N.), Justinian and his Age, Penguin Book 1951.

Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols. Madison and Milwauke 1964.

ـ أسـد رستم (دكتور) : حرب فى الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ •

ـ بيتز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد • القاهرة ١٩٥٧ •

ـ رأفت عبد الحميد (دكتور) :الدولة والكنيسـة ، الجـزء الثانى وقسطنطين • القاهرة ١٩٨٢ •

ـ ـــــــــ الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب ، مجلة نـدوة التاريخ الاسلامى والوسـيط ـ العدد الثانى ـ القاهرة ١٩٨٣ •

ـ ـــــــــ السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، العدد الثالث ـ القاهرة ١٩٨٥ •

ـ ـــــــــ الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ـ القاهرة ١٩٨٥ •

ـ رنسيمان (ستفن) : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦١ •

ـ كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى القاهرة ١٩٦٤ •

ـ هسى (ج•م•) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد القاهرة ١٩٨٤ •